ياسر عرفات

I

رحل ياسر عرفات قبل أوان الرحيل، برغم أنه كان يقترب من الثمانين من عمره. ولمعنى الرحيل قبل الأوان صلة بالحلم الذي راوده منذ مطالع شبابه، وظل يلازمه حتى اللحظات المأساوية الأخيرة من حياته، الحلم بتحرير وطنه فلسطين من الإحتلال والإغتصاب وبناء الدولة الفلسطينية الديمقراطية المستقلة على أرض الوطن وعاصمتها القدس الشرقية. ذلك أن "أبو عمار"، الذي لم يتوقف عن الحركة في اتجاه ذلك الحلم، لم يشعر لحظة واحدة بثقل السنين ولا شعر لحظة واحدة بالتعب ولا دخل اليأس لحظة واحدة إلى قلبه وروحه وعقله. وكان، وهو يصعد إلى الطائرة التي أقلته إلى باريس للعلاج من ذلك المرض المستعصية إمكانيات الشفاء منه، شديد الحرص على الإستمرار بالثقة اللامتناهية بالقضية التي أعطاها كل حياته. وهي بالثقة التي لم يشأ أن يتنازل عنها بقدرته هو بالذات على البقاء في موقع القائد للشعب الفلسطيني حتى تحقيق ذلك الحلم التاريخي العريق بالحرية والإستقلال وبناء الوطن الموعود.

رحل ياسر عرفات وبقي الحلم القديم الجديد ذاته ينتظر من يقود الشعب الفلسطيني إلى سلوك الطريق المؤدي إليه.

ملحمة حياة "أبو عمار" هي واحدة من كبريات ملاحم العصر الحديث. وستظل حاضرة مدى الدهر في أذهان وذاكرة شعبه وشعوب العالم الأخرى. ورغم أن ثمة فارقاً جوهرياً في حياة وسلوك كل من ياسر عرفات ونلسون مانديلا البطل التاريخي لشعب جنوب أفريقيا، الذي قاد شعبه إلى الإنتصار في معركته من أجل الحرية والإستقلال، فإن هذا الأخير لم يخطئ حين وصف عرفات بالبطل الملحمي للشعب الفلسطيني وأحد كبار القادة في العصر الحديث. وكأولئك الأبطال الشجعان الذين حفل بهم تاريخ البشرية على اختلاف نماذجهم الإنسانية وعلى اختلاف الشروط التي

عاشوا وناضلوا فيها، انتهى "أبو عمار" شجاعاً على طريقته من دون امتلاك القدرة على مقاومة الرحيل قبل تحقيق أحلامه وأحلام شعبه في الحرية والإستقلال. وسيظل يذكره التاريخ بصفاته وسماته كلها، في تناقضاتها، أسوة بسائر الزعماء التاريخيين لشعوبهم الحافلة سيرهم جميعهم بالتناقضات.

لقد أتيح لي أن أتعرف إلى ياسر عرفات عندما كان في أول شبابه. وكلانا متقاربان في العمر. هو من مواليد 1929 وأنا من مواليد 1930. التقيت به أول مرة في عام 1954. كان ذلك في مدينة صوفيا عاصمة بلغاريا. كنا نشارك في اجتماع عام نظمه اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي الذي كنت في ذلك الحين واحداً من أعضائه القياديين ممثلاً الشبيبة الديمقراطية العربية في تلك القيادة. ثم التقينا ثانية في مدينة براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا في عام 1956. وكنا نشارك في مؤتمر اتحاد الطلاب العالمي. كان هو رئيساً لوفد الشبيبة الفلسطينية قادماً من مصر بصفته رئيساً لرابطة طلاب فلسطين في القاهرة. أما أنا فكنت أمثل إتحاد الشباب الديمقراطي العالمي في المؤتمر بصفة ضيف مراقب. والتقينا مرة ثالثة في موسكو في عام 1957 في المهرجان العالمي للشباب والطلاب. لكن الأهم من بين تلك اللقاءات الثلاثة، بالنسبة إلى علاقتي مع ياسر عرفات الشاب، هو اللقاء الذي جرى في براغ في مؤتمر اتحاد الطلاب العالمي في ربيع 1956. ومعروف أن تلك المرحلة كانت حافلة بالأحداث السياسية المتصلة بالصراع العربي–الإسرائيلي وبالصراع داخل البلدان العربية بين جبهة كانت تقودها مصر بزعامة جمال عبد الناصر وجبهة كان محورها حلف بغداد. وكانت تلك المرحلة بسبب تلك الأحداث والصراعات حبلى بأحداث دراماتيكية قادمة، كان أهمها تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر الذي أعقب تأميم القناة وجاء رداً عليه.

كانت منصة مؤتمر اتحاد الطلاب العالمي تستقبل الخطباء من كل الإتجاهات الممثلين بالمنظمات المنتسبة للإتحاد. وكان اتحاد طلاب إسرائيل بقيادة حزب العمل عضواً في الإتحاد. وكان الإتحاد يضم منظمات طلابية من مختلف بلدان العالم. وكان ذلك الحشد من التناقضات في اتحاد الطلاب العالمي ينذر، في ذلك التاريخ المزدحم بالأحداث في منطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص، بأخطار داهمة تهدد وحدته. وأذكر أن ياسر عرفات كان من بين الذين تكلموا بلهجة قومية عالية. لكن نبرة رئيس الوفد السوري الشيوعي عبد الباقي صالح كانت أقوى من نبرة ياسر عرفات في الموقف من إسرائيل. فقوطع بصراخ من قبل المندوبين الإسرائيليين. وتوقفت أعمال المؤتمر بسبب خطاب المندوب السوري لمدة أربع وعشرين ساعة. وكاد الإتحاد أن ينقسم إذ تضامن مع الوفد الإسرائيلي جميع مندوبي المنظمات الأوروبية. وكانت لي، من موقعي كمندوب منظمة عالمية شقيقة ومن موقعي كعربي، مساهمات مع آخرين في التقريب بين وجهات النظر شارك فيها صديقي التاريخي نوري عبد الرزاق حفاظاً على وحدة الإتحاد. وسوّي الأمر. وعاد المؤتمر إلى الإنعقاد كأن شيئاً لم يكن. وكانت حسرة عرفات كبيرة في أنه لم يكن هو بطل ذلك الحدث، وأن البطل كان شيوعياً سورياً.

انقطعت اللقاءات بيني وبين ياسر عرفات بعد مهرجان موسكو للشباب وللطلاب. ولم نلتق مجدداً إلا في شهر نيسان من عام 1969 في عمان، عندما كان قد أصبح ياسر عرفات صديق أيام الشباب رئيساً لحركة فتح ورئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، وريثاً في هذا الموقع لأحمد الشقيري أول رئيس للمنظمة بعد تأسيسها ويحي حمودي الذي كان قد خلف الشقيري لفترة قصيرة سلّم بعدها الولاية لياسر عرفات مدى الحياة. ورغم أنني شاركت في مؤتمر نصرة الشعوب العربية الذي عقد في القاهرة في شهر كانون الثاني من عام 1969 فإنني لم أتمكن من الإلتقاء بأبي

عمار. ومنذ عام 1969 بدأت رحلة من نوع جديد بالكامل في العلاقة بيننا، هو من موقعه في قيادة الثورة الفلسطينية في عهدها الجديد وأنا من موقعي في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني الذي كان قد جدد شبابه وجدد أفكاره وسياساته في مؤتمره الثاني التاريخي الذي عقد في عام 1968 إثر أزمة هزت الحزب كان قطباها تيار التجديد الذي كان يقوده الشباب وتيار الحرس القديم.

ليس مهماً هنا الدخول في تفاصيل الحقبة السابقة من العلاقات بيني وبين زعيم الثورة الفلسطينية، برغم ما رافقها من أحداث في بعض محطاتها كانت تشير إلى أن ذلك الشاب المليئ بالحيوية وبالثقة الكبيرة بالنفس كان يتهيأ بسرعة للذهاب إلى موعد مهم مع التاريخ. إذ أنه كان يتهيأ ليصبح فيه القائد الجديد للثورة المغدورة ألف مرة ومرة، وليخوض باسم شعبه على رأس تلك الثورة مغامرات كبرى كانت حافلة بالنضالات وبالبطولات وبالتضحيات الجسيمة فيها. وهي كانت مغامرات حافلة بالأخطاء الفادحة، التي حالت في شروط تاريخية صعبة ومعقدة داخلياً وخارجياً دون تقريب الشعب والثورة من الحلم التاريخي باستعادة الوطن السليب إلى الحرية.

المهم هنا في الحديث عن تاريخ القضية الفلسطينية ارتباطاً بدور ياسر عرفات في حمل رايتها منذ الشباب الباكر، حتى آخر الرحلة هو التوقف عند المحطات الكبرى في هذا التاريخ، لا الدخول في تفاصيل عملية سردية هي من اختصاص المؤرخين. ما يهمني هو الدخول فيما أعتبره قراءة نقدية لمسيرة قائد شجاع ولمسيرة ثورة ولمسيرة شعب ما زال في أول الطريق برغم مرور الأعوام يكافح وسط التضحيات والآلام والخيبات من أجل تحقيق حريته وتقرير مصيره على أرض وطنه الموعود المؤجل.

تجدر الإشارة هنا إلى أن لرابطة طلاب فلسطين في القاهرة تاريخ يستحق التذكير به. فقد كانت الرابطة في ذلك الحين التعبير الأكثر وضوحاً عن الحقيقة الفلسطينية

في مواقفها وفي نشاطاتها. وكانت هيئاتها الإدارية تتشكل من تحالف أحزاب سياسية قائمة. وكانت التحالفات تتنوع بين عام وآخر. وكان يشارك فيها ممثلو الأحزاب التالية: الأخوان المسلمون وحزب البعث والحزب الشيوعي وحركة القوميين العرب. وكان أول رئيس للرابطة هو الشيوعي عوني الناظر. تبعه في موقع الرئاسة ياسر عرفات. وفي عام 1958 انتقلت الرئاسة إلى سعد الدين الغندور الذي أصبح في وقت لاحق ممثل حركة فتح في سوريا. وكان عضواً في الهيئة الإدارية في ذلك التاريخ محمد أبو ميزر الذي سيبرز اسمه في السنوات اللاحقة في مهمات أساسية ترافقت مع تأسيس حركة فتح ومع بدء المرحلة الجديدة من المقاومة في أعقاب هزيمة حزيران. وكانت للرابطة فروع في بلدان عربية وأجنبية. ثم توحدت هذه الروابط بقرار سياسي واع وشجاع لتشكيل اتحاد طلاب فلسطين في عام 1960.

لقد كثرت الكتب والكتابات حول قائد الثورة الفلسطينية في حياته وبعد وفاته. وتعدد كتّاب المقالات والأبحاث وتعدد مؤلفو الكتب من عرب وأجانب بما في ذلك في إسرائيل، تعددوا في مواقفهم من عرفات، تعظيماً له بحماس من قبل البعض وتقديراً موضوعياً لدوره ولموقعه من قبل بعض آخر وتهجماً عليه بصيغ مختلفة من قبل بعض ثالث لأسباب مختلفة. وكثرة الكتابات والكتب حول عرفات، برغم ما فيها من الإختلاف والتناقض في تقدير دوره، تؤكد بذاتها الموقع الكبير الذي احتله على الصعيدين العربي والعالمي باسم القضية الفلسطينية. وطبيعي أن تتعايش الجوانب الإيجابية مع الجوانب السلبية في حياة عرفات وفي حياة أمثاله من قادة شعوبهم. ذلك أنهم يحوّلون، كل منهم على طريقته، القضايا الكبرى التي يدافعون عنها إلى قضايا شخصية بحيث لا يستطيع المرء أن يتحدث عن تلك القضايا المعينة من دون أي يربط بينها وبين أولئك القادة الذين يحملونها ويخوضون معاركهم باسمها في

الإنتصارات عندما تتحقق وفي الإخفاقات التي تليها، وفي التضيحات الجسام التي ترافق تلك المعارك.

ولد محمد عبد الرحمن عرفات القدوة (الإسم الأصلي لياسر عرفات) في عام 1929. ويختلف المؤرخون في تحديد مكان الولادة، بين القاهرة وغزة والقدس. والده هو عبد الرؤوف القدوة. ووالدته هي زهوة أبو السعود التي توفيت وهو في الرابعة من عمره. كان والده يتنقل بين القدس وغزة والقاهرة. أما عائلة والدته فظلت في القدس. وكان عرفات يعتبر أنه من أصول عائلة الحسيني لجهة الأب والأم. وكان يفاخر بذلك نظراً لما لهذه العائلة من دور تاريخي في القضية الفلسطينية. ومعروف أن من رموز هذه القضية من العائلة ومن رموز النضال باسمها وتحت رايتها منذ وقت مبكر عبد القادر الحسيني شهيد معركة القسطل في عام 1948. ومن رموز تلك العائلة أيضاً في شروط مختلفة سابقة على ذلك التاريخ ولاحقة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني. وثمة أسماء أخرى من آل الحسيني تضاف إلى هذين الإسمين الكبيرين ارتباطاً بالقضية الفلسطينية.

عاش عرفات طفولته بين القدس والقاهرة. وخلال تلك الفترة كان لخاله سليم أبو السعود تأثير كبير عليه. فهذا الرجل المتدين الذي كان يعمل مؤذناً ويسكن بالقرب من حائط البراق (المبكى) استضاف ياسر وأخاه الأصغر فتحي بعد وفاة والدتهما لمدة أربع سنوات في دارته المقدسية. وقد دمرت قوات الإحتلال الإسرائيلي تلك الدار في العام 1969 خلال عمليات هدم الأبنية التاريخية التي تضم الزاوية الفخرية. وكان الهدف من ذلك الهدم توسيع ساحة حائط البراق. بعد عودته إلى القاهرة، في أعقاب اندلاع ثورة الـ 36 عاش ياسر وبقية أولاد العائلة مع والده عبد الرؤوف وزوجة والده نظيرة. ومع صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في العام 1947 قام الشاب ياسر بمهمة شراء الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية الثانية. وذهب بها

إلى منزل عبد القادر الحسيني في القاهرة حيث كانت تجمع الأسلحة في منزل ذلك الزعيم ليعاد إرسالها إليه في موقعه في جيش الجهاد المقدس في فلسطين. في ذلك المنزل القاهري تعرف ياسر عرفات إلى الطفل فيصل الحسيني وعلمه بعضاً من السور القرآنية. وهو فيصل الحسيني ذاته الذي كانت له مواقف اختلف فيها مع ياسر عرفات قبل أن يغادر الحياة وهو في سن الشباب.

في عام 1948 دخل ياسر عرفات كلية الهندسة في جامعة الملك فؤاد الأول (جامعة القاهرة لاحقاً). وما هي إلا أشهر حتى ترك الدراسة والتحق في غزة بمجموعة من متطوعي "الأخوان المسلمين" المصريين. لكنه تركهم لاحقاً لينضم إلى "كتائب الجهاد المقدس" حيث عمل ضابط مخابرات. في صيف ذلك العام كان الشاب ياسر في جنوب فلسطين عندما وقعت النكبة، التي تمثلت بهزيمة الجيوش العربية في حربها ضد العصابات الصهيونية لمنع قرار التقسيم. وهي الهزيمة التي أدت إليها مواقف سياسية وعسكرية لقادة الدول العربية وانتهت بتكريس دولة إسرائيل على القسم الأكبر من أرض فلسطين تجاوزاً لقرار التقسيم وإلى حرمان الشعب الفلسطيني من حقه في إقامة دولته على ما تبقى له من أرض وطنه وفق قرار التقسيم إياه. وألحقت الضفة الغربية بالأردن، وألحقت غزة بمصر من دون استشارة الشعب الفلسطيني. وجاء ذلك بقرار عربي وبتواطؤ من بعض القادة الفلسطينيين في ذلك التاريخ الكئيب. عاد ياسر إلى القاهرة بعد تلك الهزيمة حزيناً وغاضباً. وسرعان ما تحوّل الحزن والغضب عنده إلى ثورة كامنة لم تتأخر طويلاً لكي تنفجر.

تردد عرفات الشاب بين أن يسافر إلى تكساس في الولايات المتحدة الأميركية لدراسة الهندسة المدنية كما كانت تريد له عائلته، وبين أن يبقى في القاهرة لإكمال دراسته ولمتابعة نشاطاته النضالية. تقدم بطلب تأشيرة من السفارة الأميركية. لكن تأخر وصول الجواب جعله يغير رأيه ويقرر البقاء في مصر. في تلك الفترة ازدادت

صلة ياسر بالقضية الفلسطينية عن طريق أخيه الأكبر جمال عرفات الذي كان يشغل منصب السكرتير الخاص للزعيم الوطني الفلسطيني أحمد حلمي عبد الباقي رئيس حكومة فلسطين في المنفى. وهي الحكومة التي تشكلت برعاية الجامعة العربية واستمرت حتى عام 1952.

في عام 1951 انضم عرفات إلى مقاتلي "الأخوان المسلمين" الذين كانوا ينشطون ضد القوات البريطانية في منطقة السويس. وشارك معهم في بعض العمليات العسكرية في تلك الفترة لمدة ثلاثة أشهر. وشارك خلال العطلة الصيفية في دورة عسكرية تخرج فيها برتبة ضابط احتياط. والتقى بعض "الضباط الأحرار" الذين قادوا ثورة تموز. وكان من بينهم خالد محي الدين.

في عام 1952 انتخب ياسر عرفات رئيساً لرابطة الطلبة الفلسطينيين في القاهرة. وبقي على رأسها حتى عام 1956. تعرف في تلك الفترة إلى صلاح خلف (أبو إياد) الذي كان عضواً في جماعة "الأخوان المسلمين". وبفعل تلك العلاقة مع أبو إياد توطدت علاقة ياسر بالأخوان المسلمين في الجامعة. لكن تلك العلاقة لم تمنعه من إقامة علاقات مع طلاب حزب "الوفد" والطلاب الشيوعيين. ومع قيام ثورة 23 تموز 1953 التقى عرفات على رأس وفد من رابطة الطلاب اللواء محمد نجيب رئيس الدولة آنذاك. ونتجت من ذلك اللقاء تسهيلات لدخول الطلاب الفلسطينيين إلى الكلية الحربية في مصر. وعندما ساءت علاقة "الأخوان المسلمين" بضباط الثورة في أعقاب محاولة الإغتيال التي تعرض لها جمال عبد الناصر من قبلهم عام 1954 انتهى الأمر بياسر عرفات إلى دخول السجن مع الكثيرين ممن كانوا ينتمون إلى الأخوان المسلمين. لكن ياسر لم يبق في السجن سوى شهر واحد. بعد خروجه من السجن تعرف إلى خليل الوزير (أبو جهاد) الذي كان هو الآخر يتابع دراسته في

القاهرة وينشط سياسياً في الأوساط الفلسطينية ويحاول تنظيم عمليات فدائية انطلاقاً من قطاع غزة.

في عام 1956 نال عرفات شهادة الديبلوم في الهندسة المدنية من جامعة القاهرة. وعمل لفترة وجيزة في مؤسسة الإسمنت المصرية قبل أن يغادر إلى الكويت حيث حصل هناك على وظيفة في وزارة الإنشاءات العامة. ثم أسس شركة مقاولات خاصة بالإشتراك مع رجل أعمال مصري. وبعد فترة لحق به إلى الكويت كل من صلاح خلف (أبو إياد) وخليل الوزير (أبو جهاد) وخالد الحسن وأبو الأديب وفاروق القدومي وآخرون. ثم أسس بعد تخرجه في عام 1957 جمعية المتخرجين الفلسطينيين في جامعات القاهرة. وكانت آخر هيئة إدارية لرابطة الطلاب الفلسطينيين مشكلة من: محمد أبو ميزر وعلي ناصر ياسين وعاصم خليفة وناهض الريس وزهير الخطيب وفيصل كمال وهشام الشريف. وكان رئيسها سعد الدين الغندور. وتحولت إلى اتحاد عام الطلاب الفلسطينيين.

في عام 1961 التقى كل من ياسر عرفات وعادل عبد الكريم وعبد الله الدنان ومنير سويد (شيوعي) وخليل الوزير وفاروق القدومي وسليم الزعنون والتحق بهم صلاح خلف، وأعلنوا بياناً سياسياً وهيكلاً تنظيمياً لحركة فتح. وكانوا جميعهم في الكويت. ثم انضم إليهم من قطر كل من أبو يوسف النجار وكمال عدوان ومحمود عباس ورفيق النتشه. وهكذا تلاقت بالتدريج القوى التي أسست حركة فتح والتي اتخذت صيغتها الرسمية الثابتة في البيان الذي صدر في 31 كانون الأول باسم منظمة العاصفة الجناح العسكري لحركة فتح. وهي الثورة التي تزعمتها حركة فتح وشاركتها منظمات فلسطينية كانت الأولى من بينها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قبل أن تنقسم إلى عدة منظمات، والتي جاءت من رحم حركة القوميين العرب. والجدير بالذكر أن جميع الذين انتسبوا إلى حركة فتح منذ البدايات اتفقوا على الخروج

من الأحزاب التي كانوا ينتمون إليها لكي تكون الحركة هي حزبهم وهي الوعاء الذي يضمهم جميعاً في الكفاح من أجل تحرير فلسطين وإقامة دولتهم الوطنية على أرض وطنهم فلسطين.

في الفترة بين عامي 1959 و 1964 حاولت "فتح" توسيع قواعدها بين فلسطينيي الشتات في البلدان العربية. وعمدت إلى جمع التبرعات وتأمين الموارد المالية قبل البدء في العمل المسلح. وكان للمجلة الشهرية التي أصدرتها في بيروت، "فلسطيننا–نداء الحياة" دور أساس في إيصال خطاب الحركة إلى الفلسطينيين وبناء شبكة مؤيدين بينهم. ورغم أن المقالات في المجلة لم تكن موقعة فإن رئيس تحريرها والمشرف الفعلي عليها كان خليل الوزير ومعه كل من هاني فاخوري وتوفيق الحوري اللبنانيين.

في تلك الفترة تنقل أبو عمار بكثرة بين البلدان العربية بحثاً عن السلاح وعن الدعم المادي للحركة. وأقام علاقات وثيقة مع جبهة التحرير الجزائرية التي كانت قد حققت انتصارها التاريخي في عام 1962. كما أقام علاقات من الطبيعة ذاتها ولكن في شروط مختلفة مع السلطات في سوريا التي كانت قد أصبحت بعثية، ومع السلطات المصرية في ظل عهد الرئيس جمال عبد الناصر. وذهب للغرض ذاته إلى الجزائر ذاتها وإلى بلدان عربية وأجنبية عدد من المسؤولين في الحركة تنوعت التفاصيل المتصلة بمهماتهم. وكان من أبرزهم في الفترة الأولى محمد أبو ميزر (أبو حاتم). وقد كتب بعض هؤلاء سيرهم الذاتية كل منهم على طريقته ووفق تقديره لمهمته ووفق تقديره للظروف التي مارس مهمته فيها. ويستعد آخرون منهم لكتابة سيرهم الذاتية ارتباطاً بالمهمات التي كلفوا بها.

في 28 آذار من عام 1964 شارك عرفات كمندوب عن فلسطينيي الكويت في المجلس الوطني التأسيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي عقد في القدس برئاسة

أحمد الشقيري وبحضور 422 مندوباً بينهم خليل الوزير وخالد الحسن. وبرغم كل الجهود التي بذلها عرفات لكي ينجح في تحويل منظمة التحرير، باسم حركة "فتح" من العمل السياسي البحت إلى الكفاح المسلح كشكل من أشكال نضالها فإنه فشل في ذلك. ذلك أن أغلبية المندوبين في ذلك الإجتماع التأسيسي للمنظمة كانت تتريث بالبدء في العمل المسلح بانتظار توفير الشروط الملائمة له. وهكذا عادت قيادة حركة "فتح" إلى أخذ المبادرة في بدء العمل المسلح منفردة. وهيأت لذلك الشروط الممكنة وفق تقديرها لتلك الشروط. وكان ليل الواحد والثلاثين من شهر كانون الأول من العام ذاته الموعد الذي أطلقت فيه الرصاصة الأولى باسم قوات "العاصفة" الجناح العسكري لحركة "فتح". وتكرس ذلك اليوم الأول من عام 1965 عام انطلاقة الثورة الفلسطينية الجديدة. لكن معظم العمليات في مرحلة البداية لم تحقق نتائج باهرة على المستوى العسكري بسبب الضغوط التي مارستها الحكومات العربية على المناضلين الفلسطينيين، إضافة إلى نقص الخبرة لدى الفدائيين. ومع ذلك فقد ساهمت تلك العمليات في رفع معنويات الفلسطينيين وأعطت لحركة "فتح" أسبقية البدء بالكفاح المسلح الفلسطيني. أما مجلة "فلسطيننا" فكتبت في عددها الأخير في تشرين الثاني من عام 1964 قبل أن تتوقف عن الصدور الآتي:"الرأي العام العالمي لا يحترم إلا الأقوياء. سنفعل كل ما في وسعنا من أجل اللحظة التي ستطلق فيها الرصاصة الأولى، والتي من بعدها سننال احترام العالم... ألف قذيفة كلام، لا تساوي قذيفة معدنية واحدة".

II

خلقت نكبة 1948 كارثة وطنية وإنسانية بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني. إذ توزع هذا الشعب إلى أربعة أقسام في أماكن وجوده وفي شروط حياته وفي تعامله مع

قضيته الوطنية المغدورة. القسم الأول منهم هم أولئك الذين اختاروا البقاء في أرضهم في الجزء السليب من وطنهم تحت حكم دولة إسرائيل. وحملوا الجنسية الإسرائيلية وجواز السفر الإسرائيلي. وتعلموا وعلموا أولادهم العبرية وتعلموا وعلموا تاريخ شعب إسرائيل القديم والحديث وتاريخ المحرقة التي كان اليهود ضحيتها في الحرب العالمية الثانية على يد النازية. لكنهم ظلوا عرباً فلسطينيين متمسكين بهويتهم وبأرضهم وبحقوقهم، مناضلين ضد التمييز الذي كان يمارس ضدهم بأشكال شتى مستفيدين من مساحة حرية كان يضمنها لهم ذلك القدر من الديمقراطية في ظل ذلك النظام العنصري الذي عرفت به إسرائيل لدى قيامها. القسم الثاني منهم هم الذين بقوا في أرضهم داخل بقايا وطنهم فلسطين التي توزعت من دون إرادتهم وبتواطؤ متعدد الجهات والإتجاهات من داخلهم ومن خارجهم، بين الضفة الغربية تحت حكم دولة الأردن (المملكة المستحدثة) وقطاع غزة تحت حكم دولة مصر الملكية. ورغم أنهم كانوا يعيشون في جزء من وطنهم الأصلي فلسطين إلا أنهم كانوا يخضعون لسلطات لم تحترم لهم هويتهم الفلسطينية ولا احترمت حقوقهم الإنسانية. وشكل ذلك الواقع مفارقة عجيبة بالمقارنة مع ما كان عليه حال أشقائهم في الدولة العبرية التي مارست عليهم عنصرية مغلفة بغطاء ديمقراطي هش ومشوه. القسم الثالث منهم هم الذين هاجروا تحت قصف المدافع خلال حرب النكبة الخاسرة إلى الجوار العربي في البلدان الشقيقة المجاورة الأردن ولبنان وسوريا. وأقيمت لهؤلاء مخيمات كانت ولا تزال مخيمات مورست عليهم فيها كل أنواع الإذلال والقهر والعدوان والتسلط من قبل سلطات الدول الشقيقة وأجهزة مخابراتها ومن قبل المنظمات الفلسطينية في المرحلة التي رفعت فيها القيادة الجديدة باسم الثورة راية الدفاع عنهم وعن حقهم في العودة إلى الوطن. القسم الرابع منهم هم الذين ذهبوا بعيداً في الشتات في بقاع الأرض في الأميركيتين وأوستراليا ودولاً ومناطق أخرى.

هكذا كان حال الفلسطينيين حين أنجز الشاب ياسر عرفات الطور الأول من مسيرته وبدأ يدخل في الطور الثاني منها. كان ياسر قد بلغ الذروة في تطور مشاعر القلق والغضب في عقله وفي وجدانه من خلال معاينته ومعايشته مأساة شعبه المشرد داخل أرضه وفي عقر داره وفي كل مكان حط رحاله فيه. وفي قلب تلك المشاعر كان ينمو ويكبر عنده الحلم باستعادة الوطن إلى أصحابه من مغتصبيه من كل الجهات، والحلم بأن يكون هو قائد الثورة التي تعيد إلى الشعب المظلوم المقهور المشرد وطنه السليب. وكانت الرصاصة الأولى في ليل الواحد والثلاثين من شهر كانون الأول من عام 1964 البداية في عقل ووجدان ذلك الشاب الذي صار اسمه صنواً لفلسطين ولشعبها ولقضيتها ولثورتها، برغم كل ما ارتبط بتلك المسيرة الطويلة من آلام ومرارات ومن تضحيات جسام ومن أمجاد ومن أخطاء ومن إنجازات ومن خيبات ومن مغامرات سياسية وعسكرية كانت باهظة الثمن بكل المعاني بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني وإلى الشعوب العربية في الأردن ولبنان على وجه الخصوص.

لم تأت الزعامة إلى ياسر عرفات دفعة واحدة. ولا هي جاءت بقرار طوعي وعفوي من قبل رفاقه في حركة "فتح". ولا جاءت من أصدقائه وحلفائه ومن خصومه في التنظيمات الفلسطينية. بل هي جاءت إليه تتويجاً لأدوار اضطلع بها في النضال على جبهتيه، جبهة العمل السياسي بكل أشكالها والتباساتها وجبهة الكفاح المسلح بكل البطولات فيها وبكل الأخطاء الفادحة المتصلة بها. وليس مهماً الدخول في سرد مفصل لمسلسل الأحداث منذ تأسيس حركة فتح وإطلاق الرصاصة الأولى وصولاً إلى العام الذي أعقب هزيمة حزيران عام 1967. المهم هو ما كان قد تحقق بعد الهزيمة وكرد فعل عليها. إذ هيأت الهزيمة الشروط لانطلاقة جديدة للثورة الفلسطينية. وتحولت الثورة من مجرد حركة ضعيفة مطاردة من العدو الإسرائيلي

ومن الأنظمة العربية إلى ثورة عظيمة بكل المعاني، في السياسة وفي العمل المسلح وفي كل ميادين العمل من أجل تحرير الأرض.

تنقل الشاب الثائر عرفات في بدايات انطلاقة العمل المقاوم بين عمان ودمشق والداخل الفلسطيني فيما يشبه المغامرة بكل المعاني. فاعتقل وأفرج عنه ثم اعتقل ثم تحرر ثم نجا من الإعتقال ومن الإغتيال في الأماكن التي تنقل فيها حاملاً في قلبه وعقله وروحه الثائرة حلم فلسطين الحرة وحلمه في أن يكون بطل تحريرها. وثبت أكثر من أي واحد من رفاقه في المهمة التاريخية إلى أن جاء في شكل طبيعي ومن دون افتعال ومن دون قسر إلى موقعه كزعيم لحركة "فتح" وإلى موقعه كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكانت المحطة الأولى لتلك الرحلة التاريخية عمان. ففي عمان تكرس موقعه المزدوج ذاك. وهو الموقع الذي بدأ يصبح فيه بسرعة الصاروخ رمز الشعب الفلسطيني وقائد ثورته.

غير أن الموضوعية التاريخية تقضي بالإقرار بأن عرفات في قيادته التاريخية لتلك الثورة التي تكرست بالوقائع وبالعمل اليومي في السياسة وفي الكفاح المسلح وفي العلاقات مع الحركات الثورية في العالم ومع قيادات الدول العظمى، لم تجعله صاحب الدور الوحيد في قيادة الثورة ولم تلغ أدواراً مرموقة لقادة آخرين من رفاقه في حركة "فتح" ومن أخوانه في المنظمات الفلسطينية الأخرى الذين جاءوا إلى الثورة من حركة القوميين العرب، على وجه الخصوص. وكان أبرز هؤلاء القادة من حركة "فتح" أبو جهاد (خليل الوزير) وأبو إياد (صلاح خلف) وأبو يوسف النجار ورفيق النتشه وخالد الحسن وكمال عدوان، ثم فيما بعد فاروق القدومي وكمال ناصر وآخرون. وكان من أبرزهم في المنظمات الفلسطينية الأخرى جورج حبش، أول المؤسسين لحركة القوميين العرب منذ مطالع خمسينات القرن الماضي وأول المؤسسين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قبل انقساماتها، ونايف حواتمه الذي انشق

عن الجبهة الشعبية وأسس الجبهة الشعبية الديمقراطية مع عدد من رفاقه القدامى والجدد في حركة القوميين العرب. ثم كثرت المنظمات الفلسطينية وكثرت قياداتها من شتى الإتجاهات والتيارات. وكان من بينها منذ مطالع ثمانينات القرن الماضي وصولاً إلى مطالع تسعينات القرن حزب الشعب الفلسطيني الوريث المعاصر للحركة الشيوعية الفلسطينية ذات التاريخ العريق. وكان من بينها كذلك حركة حماس الإسلامية، الصيغة الفلسطينية المعدلة لحركة الأخوان المسلمين.

ولّدت الهزيمة عند الشعب الفلسطيني وعند الشعوب العربية مزيجاً من الشعور باليأس وبالإحباط، من جهة، وبالإحتجاج والغضب من جهة ثانية، وبالثورة والتحدي من جهة ثالثة. وجاءت المقاومة الفلسطينية لتقطف نتائج ذلك الشعور بتناقضاته كلها، ولتؤسس لحركة ثورية جديدة تحت شعار الكفاح المسلح وحرب الشعب. وهي الحركة التي كانت ترمي إلى استبدال الأنظمة العربية وجيوشها بحركة فلسطينية ذات محتوى قومي عربي تقوم على قاعدة أن القضية الفلسطينية هي محور قضايا الأمة وأن لها الأولوية على كل القضايا. وأدت هزيمة الجيوش العربية إلى أن تكبر حركة المقاومة بسرعة استثنائية وأن تتسع قاعدتها الشعبية لتشمل العالم . ولم تتأخر تلك الحركة لتشمل أيضاً أوساطاً شعبية واسعة في كل البلدان العربية وتستقطب أنصاراً لها في كل بقاع الأرض لم يتردد قسم منهم في الإنخراط التنظيمي والكفاحي في صفوفها. وكان واضحاً، بالنسبة إليّ وإلى رفاقي من الشيوعيين وإلى عدد غير قليل من المحللين السياسيين ومن المراقبين ومن المفكرين من تيارات الحركة الثورية العربية، أن ذلك التطور السريع في حركة المقاومة لم يكن كله طبيعياً، برغم ما مثلته بقيامها من شرعية وطنية فلسطينية وعربية، ومن أمل في أوساط الشبيبة خصوصاً وفي أوساط اليسار الماركسي والقومي في شكل عام، من أجل الخروج من الأزمة العميقة التي ولدتها الهزيمة إلى الحرية المفتقدة في البلدان العربية بفعل سيادة أنظمة

الإستبداد فيها بألوانها وبصيغها المختلفة. وكان أكثر ما يثير الإنتباه والإهتمام والإستغراب ذلك الدعم السياسي والمالي الذي كانت تتمتع به قيادة "فتح" خصوصاً من أوساط يمينية في عدد من البلدان العربية بما فيها بلدان نفطية. صحيح أن ذلك الدعم قد جاء في وقت لاحق، بعد أن كانت القيادة السورية البعثية هي البادئة في تقديم الدعم للمقاومة بعامة، ولحركة "فتح" بخاصة. لكن ذلك الدعم سرعان ما تحول إلى موقف سياسي يرتبط بأهداف مباشرة وبعيدة المدى. وكانت القيادة الرسمية لحركة المقاومة تتمثل أساساً بحركة "فتح"، التي كانت تعتبر من قبل بعض اليسار حركة يمينية انطلاقاً من أن معظم كوادرها وأعضائها كانوا من أصول الأخوان المسلمين وحزب "التحرير" الإسلامي. وكان أبرز هؤلاء القادة ياسر عرفات وخليل الوزير وكمال عدوان وصلاح خلف وخالد الحسن وأبو يوسف النجار ورفيق نتشة وكمال عدوان. وكان الأعضاء الآخرون من أصول بعثية وأبرزهم فاروق القدومي وكمال ناصر. إلا أن هؤلاء كانوا يشكلون القسم الأضعف في قيادة "فتح" من حيث العدد ومن حيث التأثير. أما الجناح اليساري في المقاومة فكان كله من أصول وجذور حركة القوميين العرب. وكان يتمثل هذا الجناح بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي سرعان ما انقسمت بالصراع بكل أشكاله إلى عدة جبهات، مع بقاء الجبهة الشعبية الأم بقيادة جورج حبش التنظيم الأقوى والأكثر تمثيلاً. وكان الجناح اليساري الآخر في المقاومة من أصول بعثية سورية في الأساس. وكان يتمثل في منظمة الصاعقة.

لم يكن للشيوعيين الفلسطينيين دور وموقع في حركة المقاومة لدى تأسيسها. إلا أن الشيوعيين اللبنانيين انخرطوا فيها انطلاقاً من تقييمهم لها بأنها حركة مشروعة لشعب يناضل من أجل تحرير أرضه. ولأن العدوان الإسرائيلي طاول كل البلدان العربية المحيطة بفلسطين، ومنها لبنان، ولأن الشيوعيين اللبنانيين كانوا يعتبرون أن

الصراع مع إسرائيل ليس صراعاً خاصاً بالفلسطينيين بل هو صراع كل العرب مع عدو يغتصب الأرض ويتنكر للحقوق القومية للشعب الفلسطيني ويطمع في ضم أراض عربية أخرى ويشكل أداة عدوان بيد الإمبريالية ضد حركة التحرر الوطني والإجتماعي للشعوب العربية كافة، لكل هذه الإعتبارات اتخذ الشيوعيون اللبنانيون قرارهم السياسي بالمشاركة في ذلك النضال كحق وكواجب عليهم لا يجوز لهم التخلف عن القيام بدورهم فيه. فدعوا أعضاء الحزب في القرى الحدودية لكي ينخرطوا في الكفاح المسلح الفلسطيني باسم الحزب في صفوف أي من التنظيمات التي تتوافر لهم شروط العمل في مجموعاتها المقاتلة. وكان ابراهيم جابر أول شهداء الحزب في صفوف حركة "فتح" الذي سقط مع مقاومين آخرين داخل الأراضي المحتلة. وكان ذلك في أواخر عام 1968. وفور وصول النبأ إلى الحزب باستشهاده فاجأتنا مشكلة الإحتفال بتأبينه أولاً في منطقة النبعة في الضاحية الشمالية للعاصمة، ثم في التشييع الرمزي لجثمانه في بلدته محيبيب في المنطقة المحاذية للحدود في قضاء بنت جبيل. إذ أصر توفيق الصفدي، ومعه حمدان، المسؤول المعلن لـ"فتح" في بيروت على اعتبار رفيقنا الشيوعي هو شهيد "فتح" ورفض أية إشارة إلى انتمائه الشيوعي. لكننا رفضنا الإعتراض وكرمناه في الإحتفالين كشيوعي لبناني مقاوم في صفوف حركة فتح. وكان موقف مسؤولي حركة فتح ذاك مؤشراً سيئاً من أول الطريق إلى أن حركة فتح لا تريد حلفاء لها في لبنان، بل أنصاراً تابعين وحسب. وعنصر المفاجأة في ذلك الموقف هو أننا كنا قد أبلغنا قيادة حركة فتح، على وجه التحديد بأن توجهات قد صدرت من قبل حزبنا إلى منظمات الحزب في الجنوب من أجل الإنخراط في المجموعات الفدائية المقاتلة مع المحافظة على انتماء المقاتلين الشيوعيين لحزبهم الشيوعي. وتأكيداً على موقفنا المشار إليه أعلنت بوضوح لا لبس فيه، في الخطاب الذي ألقيته في حفل تأبين شهيدنا في بلدته

الجنوبية محيبيب، أن خطتنا وموقفنا في دعم المقاومة الفلسطينية لا يجعلنا جزءاً منها. بل هو كان دعماً من قبل تنظيم وطني لبناني لتلك المقاومة يؤدي فيه واجباً عليه وحقاً طبيعياً له في معركة وطنية وقومية مشروعة. وتكررت الحوادث المشابهة. فعقدنا اجتماعاً في منزل رفيقنا جورج الهبر مع صلاح خلف في أوائل عام 1969 بحضور توفيق الصفدي، شارك فيه من الحزب جورج حاوي ونديم عبد الصمد وعلي العبد وأنا. اتفقنا في الإجتماع على تنظيم العلاقة مع حركة فتح، والذهاب إلى عمان للإجتماع مع ياسر عرفات ومع سائر قيادة المقاومة بكل أجنحتها. تشكل الوفد من جورج حاوي وعلي العبد ومني. وكان اللقاء في عمان مؤثراً بالنسبة إليَّ. فما أن دخلنا مكتب "أبو عمار" حتى هتف من بعيد منادياً باسمي. وتعانقنا طويلاً. إذ كان ذلك اللقاء هو الأول، في ظروف تاريخية جديدة مختلفة بعد أكثر من اثني عشر عاماً، أي بعد لقائنا الأخير في مهرجان الشباب والطلاب الذي عقد في موسكو في عام 1957.

دخلنا في نقاشات طويلة وعميقة وواسعة وحادة مع عرفات وخالد الحسن وكمال عدوان وأبو يوسف النجار وكمال ناصر من قيادة فتح، ومع جورج حبش الأمين العام للجبهة الشعبية ونايف حواتمه الأمين العام للجبهة الشعبية الديمقراطية، ويحي حمودة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بعد الشقيري، وعبد الرزاق اليحيى وقائد جيش التحرير الفلسطيني ومع آخرين. وكانت مواضيع النقاشات ومستوياتها مختلفة، بين قيادة فتح وقيادة كل من الجبهة الشعبية والجبهة الشعبية الديمقراطية. كنا في السياسة أقرب إلى منطق فتح. وكنا في الفكر وفي التعاطف أقرب إلى منطق الجبهة الشعبية. وتحفظنا على التنظيرات التي كان يسقط فيها بعض المنظرين اليساريين في الجبهة الشعبية الديمقراطية خصوصاً وقائع تاريخية قديمة وأفكاراً قديمة متصلة بها على الزمن الحاضر المختلفة شروطه. وأكدنا تحفظنا على كل تطرف

يساري مما كان لينين يحذر منه الشيوعيين بحزم وبسخرية، لا سيما في كتابه المعروف "اليسارية مرض الطفولة في الشيوعية". زرنا القواعد العسكرية المنتشرة في الأغوار. وزرنا ما كان قد تبقى من مدينة الكرامة بعد المعركة الشرسة التي كانت قد خاضتها المقاومة قبل ذلك ببضعة أشهر مع القوات الإسرائيلية وانتهت بتدمير المدينة.

عدنا من الزيارة بزوادة كبيرة من الأفكار والملاحظات والتوقعات حول ما كان يجري في لبنان وفي الأردن وفي المنطقة وحول ما كان يجب علينا القيام به في الحزب إزاء كل التطورات التي كانت تحصل والتي كان منتظراً حصولها. وقد ناقشنا كل تلك الأمور في دورة لاجتماعات اللجنة المركزية للحزب كانت سبقتها اجتماعات مماثلة قبل القيام بالزيارة. وقد اتخذنا في هذا الشأن عدة قرارات: قرار أول يقضي بالعمل لتشكيل منظمة للمقاومة خاصة بالشيوعيين العرب، تحت اسم "قوات الأنصار"، التقينا فيه مع رغبة مماثلة من أحزاب شيوعية أخرى ولو بمنطق مختلف عن منطقنا. قرار ثان يقضي بالبدء بحملة تدريب لمقاتلينا في مراكز الفدائيين في سوريا والأردن وفي الجنوب اللبناني التابعة للصاعقة ولفتح وللجبهة الشعبية وإنشاء مراكز تدريب خاصة بقواتنا. قرار ثالث يقضي بالعمل للحصول على أسلحة من الإتحاد السوفياتي ومن سوريا ومن فتح ومن كل جهة ممكنة. قرار رابع يقضي بدعم المقاومة ضد الإتجاهات التي كانت سائدة على صعيد السلطة اللبنانية لقمعها. قرار خامس يقضي بالتمايز في فهمنا لدور المقاومة وفي تحديدنا لموقع القضية الفلسطينية عن منطق القيادة الفلسطينية وعن منطق قوى اليسار المندمج بالمقاومة، الذي كان يعتبر أن كل مهمة وكل قضية ينبغي أن يخضعا في لبنان وفي كل البلدان العربية لمصلحة الثورة الفلسطينية. وكانت نقطة الإنطلاق عند هؤلاء أن القضية الفلسطينية هي القضية المحورية في النضال الوطني والثوري العربي. وكان

ذلك الموقف في نظرنا موقفاً عدمياً. قرار سادس يقضي بالعمل بنفس طويل لكي لا يتحول النشاط الفدائي في لبنان والدعم الذي كانت تقدمه القوى الوطنية للمقاومة إلى مصدر تفجير حرب أهلية كنا نرى بكثير من القلق مخاطر حصولها. وحين شرعنا في وضع تلك القرارات موضع التطبيق في سياستنا وفي تحالفاتنا اللبنانية والعربية اصطدمنا بالتدريج بالكثير من العقبات ذات الصلة بالشروط التي كانت تملى علينا من كل حدب وصوب. وهي شروط اختلفت وتنوعت وتناقضت اتجاهاتها واتجاهات الذين كانوا في موقع إملائها علينا. وكان بعضها من داخل الحزب. إذ كان فريق من الشيوعيين في القيادة وفي القاعدة يرى مخاطر الإنزلاق في العمل المسلح التي يعبّر عنها ويشير إليها احتمال عسكرة الحزب وعسكرة عمله السياسي، وتخليه بالتدريج عن شعاره الكبير والأساسي، شعار النضال من أجل التغيير الديمقراطي بالوسائل والأدوات الديمقراطية. ولم يكن ذلك الموقف الإعتراضي في الحزب من طبيعة واحدة ولا كان الذين تقدموا به يحملون الأهداف ذاتها. أما مصادر الضغط الأخرى التي كانت تمارس علينا فكانت من اتجاهات أخرى، مختلفة فيما بينها ومتناقضة معها. وهي كانت من داخل التحالف الوطني اللبناني الذي كان قد بدأ يحمل اسم الحركة الوطنية بقيادة كمال جنبلاط. وكان يرمي الضغط على الحزب من ذلك الفريق الوطني اللبناني إخراج الحزب من حالة التردد في سلوك الطريق الذي كان عنوانه وعنوان الهدف فيه هو الإستعانة بالمقاومة الفلسطينية لتغيير صيغة لبنان لعام 1943 من خلال إزالة الهيمنة على الدولة من قبل الفريق المسيحي اليميني الذي كان مستأثراً بالسلطة وبمؤسساتها وبالقرار في كل ما يتصل بلبنان وبعلاقاته العربية والأجنبية وبمستقبله. وترافق ذلك الضغط من قبل حلفائنا في الحركة الوطنية بالضغط الذي مارسته علينا المقاومة الفلسطينية وامتداداتها الشديدة الإلتباس في البلدان العربية بكل التناقضات في المصالح والأهداف لدى كل من سلطات تلك

البلدان. وكان بين قيادة الحزب في ذلك الوقت بالذات من كانوا تحت تأثير قرارات المؤتمر الثاني التي بالغت في الموقف من القضية القومية. وانتهى الأمر بنا بالتدريج إلى الخروج من تلك القرارات الآنفة الذكر والخروج عليها. وتمثل ذلك الخروج على وجه الخصوص في دخولنا في الحرب الأهلية.

لم تكن المغامرة عند ياسر عرفات من دون حساب. فهو كان منذ البدايات ثورياً براغماتياً. ويبدو أنه كان يقرأ، وهو ينتقل من طور إلى طور في نضاله للوصول إلى موقعه القيادي، سير الأبطال التاريخيين لشعوبهم. وهي سير يحب القادة الذين هم من نوع ياسر عرفات أن يقرأوها ويأخذوا منها الدروس الضرورية لتجربتهم في مواقع القيادة لحركاتهم الثورية ولمواقعهم القيادية في بلدانهم، عندما يصبحون أسياداً فيها على رأس سلطات تقودهم إلى الإستيلاء على تلك السلطات بانقلابات عسكرية في معظم الأحيان أو بوسائل ووسائط أخرى. وهذا ما عرفناه على سبيل المثال لا الحصر في سير كل من الرئيس المصري جمال عبد الناصر والرئيس السوري حافظ الأسد برغم ما بين سيرتي الزعيمين من اختلاف كبير في البدايات وفي النهايات. وهو أمر طبيعي. لذلك أقول بأن المغامرة عند ياسر عرفات كانت محسوبة عنده منذ البدايات. إذ كان يحاول ببراغماتيته الثورية أن يصل إلى مبتغاه. ومبتغاه كان الوصول إلى موقع القائد الرمز للشعب الفلسطيني ولثورته التي كان يسعى لأن تقوده إلى استعادة الوطن السليب من غاصبيه وإقامة الدولة المستقلة على أرضه.

في شهر كانون الثاني من عام 1969 عقد في القاهرة المؤتمر العالمي لنصرة الشعوب العربية ترأسه أنور السادات. وحضر حفل الإفتتاح فيه الرئيس جمال عبد الناصر. وحضرته شخصيات سياسية وثقافية من البلدان العربية ومن البلدان الأجنبية. وكانت القضية الفلسطينية الموضوع الرئيس في المؤتمر. إذ هي كانت تختصر في تلك الحقبة القضايا العربية. في ذلك المؤتمر برز عرفات من موقعه في

قيادة الثورة بطل النضال التاريخي باسم القضية الفلسطينية وتحت رايتها. وكانت قد سبقت انعقاد المؤتمر ببضعة أشهر معركة "الكرامة" في الأردن، المعركة التي قادها عرفات ورفاقه في قيادة "فتح" في مواجهة العدوان الإسرائيلي. وأبدى فيها الفدائيون الشجعان قدرة فائقة على القتال وقدرة فائقة على تحمل التضحيات التي نتجت عنه. وانتهت المعركة بتدمير المدينة وبخسائر إسرائيلية في الآليات وفي الأرواح. وشكلت المعركة بداية حقيقية لتلك الحقبة الجديدة من الثورة الفلسطينية التي ارتبطت باسم حركة "فتح" وباسم قائدها التاريخي ياسر عرفات.

إلا أن الأهمية التاريخية والسياسية لمعركة "الكرامة" ولمؤتمر القاهرة أنها كرست الثورة الفلسطينية وقيادتها جزءاً من الواقع العربي وجزءاً من الواقع العالمي. إذ هما أعادا إلى القضية الفلسطينية وهجها بعد أن كانت الأنظمة العربية التي حملتها قد ألحقت بها هزيمتين متتاليتين، هزيمة 1948 وهزيمة 1967. ثم صارت عمان مركزاً رسمياً للثورة ولقيادتها. واتخذت شرعيتها كممثل حقيقي للشعب الفلسطيني بعد أن انتقلت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممن كانوا يعينون من قبل الدول العربية، إلى ياسر عرفات الذي كرسته في موقع الزعامة للمنظمة وللشعب معاركه البطولية. وكان قد سبق انعقاد مؤتمر القاهرة إطلاق شعار الدولة الديمقراطية الفلسطينية الموحدة التي تضم كل مكونات الشعب الفلسطيني مسيحيين ومسلمين ويهوداً عرباً وأجانب. وهو البرنامج الذي أعلنه في باريس في أواخر عام 1968 ممثل حركة فتح في أوروبا محمد أبو ميزر، بعد نقاشات طويلة أجراها مع القوى السياسية في أوروبا التي كانت تلح على الفلسطينيين أن يقدموا برنامجاً يساعدهم في تأمين الدعم للقضية الفلسطينية وللحركة الوطنية الفلسطينية. لكن النقاشات التي سبقت المؤتمر وترافقت مع انعقاده أخرجت ذلك الشعار من التداول بالتدريج. وكان المؤتمر تكريساً لياسر عرفات زعيماً مطلقاً للثورة الفلسطينية من دون منازع.

لقد شاركنا، نحن الشيوعيين اللبنانيين، في مؤتمر القاهرة من بين عدد قليل من الشيوعيين العرب. وكان وفدنا مؤلفاً من ثلاثة هم فاروق معصراني وجورج البطل وأنا. وقد عرّفنا خالد محي الدين إلى الرئيس عبد الناصر وإلى رئيس المؤتمر أنور السادات. وعرفني شخصياً إلى شعراوي جمعة عضو قيادة الإتحاد الإشتراكي ووزير الداخلية. كما عرفني لطفي الخولي إلى كل من فاروق القدومي أحد قادة حركة "فتح" وإلى الأخضر الإبراهيمي، سفير الجزائر في القاهرة وإلى عبد الفتاح اسماعيل أحد قادة الثورة في اليمن الديمقراطي، الذي كان يعيش مبعداً في القاهرة بقرار من رفاقه في الثورة. ثم التقى وفدنا ببعض القادة الفلسطينيين. ولم يلتق أحد منا بعرفات.

كان عاما 1969 و1970 العامين اللذين توطدت فيهما مواقع الثورة الفلسطينية بفصائلها المختلفة التي كانت تتوالد من رحم المنظمتين الأساسيتين "فتح" و"الجبهة الشعبية". لكن خطأين فادحين رافقا ذلك النهوض في الثورة سرعان ما أديا بها إلى إحدى الكوارث التي كانت تمنى بها من دون أن يستفيد قادتها من تجاربهم فيها. الخطأ الفادح الأول يتمثل في أن جميع فصائل الثورة، لا سيما "فتح" الأكبر والأكثر قدرة ونفوذاً وسطوة والأكثر تجربة في الكفاحين السياسي والعسكري، قد طرحت نفسها باسم الشعب الفلسطيني وثورته وباسم ممثله الشرعي منظمة التحرير، سلطة ثانية تنافس سلطة الملك الأردني في المملكة. وكان الشعار الذي عبر عن ذلك الخطأ الفادح هو "ازدواجية السلطة" التي تعني أنه سيأتي يوم يحسم فيه الصراع بين السلطتين لصالح سلطة الثورة الفلسطينية. وبرزت تنظيرات من قبل بعض يساريي تلك المرحلة من بينهم بعض قادة الجبهة الديمقراطية تؤكد صحة الشعار وأهميته. لكن قادة الجبهة الديمقراطية استحضروا من التاريخ نموذج الثورة الإشتراكية في روسيا دعماً لمواقفهم، ابتداء من انتفاضة 1905 إلى ثورة شباط 1917 وصولاً إلى

ثورة أوكتوبر التي قامت وانتصرت في ذلك العام ذاته ودشنت بداية التجربة الإشتراكية على الصعيد العالمي.

ذلك كان الخطأ الفادح الأول. أما الخطأ الفادح الثاني فيتمثل بعمليات خطف الطائرات التي نظمتها قيادات الجبهة الشعبية وعمليات أخرى من نوعها كانت أكثرها فداحة العملية التي نظمها وقادها أبو إياد باسم منظمة "أيلول الأسود". ولم يكد يمضي عامان على ذلك الصراع من أجل السلطة في الأردن حتى اندلعت حرب حقيقية خاضتها سلطة المملكة لحسم تلك الإزدواجية في السلطة في البلاد لصالح الملك والمملكة. وكان ما كان مما صار يوصف في تاريخ الثورة الفلسطينية في مطالع بروزها بالمجزرة التي حصلت في شهر أيلول من عام 1970. وانتهت تلك الحرب بخروج قيادة الثورة وكوادرها ومناضليها من الأردن إلى لبنان. ولم يخرج ياسر عرفات وخليل الوزير من عمان إلا بالسر وبثياب تنكرية، رغم وجود الوسيط العربي جعفر النميري الذي أرسل لإنقاذ عرفات وقادة الثورة ولإيقاف شلال الدم. وكانت تنتظر عرفات في القاهرة القمة العربية التي كان قد دعا لها الرئيس جمال عبد الناصر من أجل إيجاد حل سلمي لذلك النزاع الدامي ولإنقاذ الثورة من الهلاك. وكان قد سبق مبادرة الرئيس جمال عبد الناصر وسبق تلك الحرب أن تعرض الرئيس عبد الناصر ذاته لانتقادات حادة من قبل المنظمات الفلسطينية جميعها بسبب قبوله مبادرة الأميركي روجرز لعقد مؤتمر للسلام في جنيف وبسبب قبوله القرار 242 الذي أرفقه بشعاره الشهير: النضال لإزالة آثار العدوان. وهو الشعار الذي طرحه الرئيس عبد الناصر وهو يعلن موافقته على مبادرة روجرز ويعمل في الوقت ذاته على إعادة تنظيم القوات المسلحة، التي كانت حرب الإستنزاف في منطقة قناة السويس ميدان الإختبار فيها استعداداً لمعركة تحرير الأرض وإزالة آثار العدوان. وللحقيقة التاريخية ينبغي التذكير بأن عرفات لم يكن يشارك رفاقه وحلفاءه في الثورة موقفهم من مواقف

الرئيس عبد الناصر. وللحقيقة التاريخية أيضاً أحب أن أذكر بأننا في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني كنا مع طرح الرئيس عبد الناصر ومع عرفات في ذلك الوقت. وقد واجهتني شخصياً وواجهت رفاقاً آخرين من قيادة الحزب صعوبات ومعارك سياسية حادة مع ممثلي المنظمات الفلسطينية بما في ذلك حركة فتح في العديد من اللقاءات والندوات والإجتماعات التي كانت تجري في تلك الفترة في لبنان وفي بلدان عربية وأجنبية حول القضية الفلسطينية. ومعروفة الوقائع الصعبة التي رافقت انعقاد القمة العربية التي عقدت في القاهرة بدعوة من الرئيس عبد الناصر لإنقاذ الثورة الفلسطينية من الهلاك في أعقاب مجازر أيلول في الأردن. ومعروفة نتائج تلك القمة التي تكرست فيها نهاية مرحلة في الثورة وبداية مرحلة جديدة كان لبنان هذه المرة ميدان التجربة والخطأ والخسارة فيها. ولعل صعوبات تلك الحقبة والتباساتها وتعقيدات الوضع العربي والدولي هي التي أدت إلى توقف قلب الرئيس عبد الناصر بعد أيام قليلة من انتهاء أعمال تلك القمة.

III

كان الوضع في لبنان، عشية انتقال قيادة الثورة الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات إلى لبنان من الأردن في أعقاب مجازر أيلول، قد بدأ يتحول بالتدريج إلى مركز لإستكمال عمل المقاومة انطلاقاً من الأراضي اللبنانية. وكانت قد بدأت تقام على الحدود اللبنانية – الإسرائيلية في الجنوب اللبناني قواعد لانطلاق تلك المقاومة. وكانت تشارك في عمليات المقاومة الفلسطينية قوى لبنانية توزعت بين قوى اليسار ومن ضمنها الحزب الشيوعي اللبناني، وقوى قومية متعددة الإتجاهات، من بعثية وناصرية ومن تنظيمات ذات ارتباط بأهداف سياسية مع هيئات ومع سلطات عربية وأجنبية. وكان عاما 1968 و 1969 حافلين بالأحداث السياسية والأمنية تعاطفاً

مع الثورة في انطلاقتها الجديدة في لبنان، واعتراضاً خجولاً ثم صريحاً عليها من قبل السلطة القائمة، ومن قبل قوى كانت تعلن منذ البدء خشيتها من أن يتحول لبنان إلى ساحة صراع لا ينتهي حول القضية الفلسطينية وباسمها. وكان لبنان في تلك الفترةِ امتداداً لفترات سابقة محط اهتمام من قبل دول عربية وأجنبية كانت تمارس صراعاتها فيما بينها على أرضه، استقواءاً بعضها ضد بعض باللبنانيين أنفسهم وتدخلاً من بعض آخر من دون وسائط. الأمر الذي كان يحوّل لبنان بالتدريج إلى ساحة لكل أنواع الصراعات بين الإتجاهات المختلفة من كل الجهات. وكانت لكل من تلك الدول المتدخلة في لبنان بأشكال مختلفة في تلك الصراعات أهداف خاصة بها. وهي كانت على الدوام أهدافاً لا علاقة للبنان ولشعبه بها لا من قريب ولا من بعيد. ولن أدخل هنا في تفاصيل تلك الأحداث. فهي معروفة. لكنني أود أن أشير إلى أن الأحزاب التي تشكلت منها الحركة الوطنية اللبنانية ومن ضمنها الحزب الشيوعي اللبناني قد تبنت الدفاع عن حق المقاومة الفلسطينية في العمل الفدائي من داخل الأراضي اللبنانية من دون أن تحسب حساباً دقيقاً ومسؤولاً لنتائج قرارها. وكان ذلك من قبل تلك الأحزاب شكلاً من أشكال الصراع الذي ترافق مع قيام لبنان كدولة مستقلة حول الصيغة اللبنانية وحول النظام الديمقراطي وحول موقع لبنان في العالم العربي وحول أمور أخرى. وكانت تظاهرة الثالث والعشرين من شهر نيسان من عام 1969 دعماً للثورة الفلسطينية التعبير الحاد والمباشر عن ذلك الحق الذي شرّعته أحزاب الحركة الوطنية للمنظمات الفلسطينية في الكفاح المسلح من داخل الأراضي اللبنانية. ومعروف أن تلك التظاهرة قد قمعت بعنف. وسقط فيها شهداء كان بينهم شهيد للحزب الشيوعي. وكان كمال جنبلاط من موقعه في رئاسة الحركة الوطنية معارضاً لتلك التظاهرة ومعارضاً لأهدافها. لكنه عاد ليتضامن مع رفاقه بعد القمع الذي تعرضت له حركتهم وقاد تظاهرة كبيرة احتجاجاً على القمع واكبتها قوى الأمن

من دون أن تتعرض لها. ومعروف أيضاً أن ذلك الحدث قد خلق توتراً في الحياة السياسية اللبنانية كان من مفاعيله أن الحكومة قدمت استقالتها وظلت البلاد من دون حكومة مدة ستة أشهر.

إن ما يهمني مما توقفت عنده من أحداث هو أن أشير إلى أن الصراعات اللبنانية–اللبنانية، والصراعات العربية–العربية باسم القضية الفلسطينية في الإيجاب وفي السلب، قد أدت في نهاية عام 1969 إلى توقيع اتفاق القاهرة الشهير. وهو الإتفاق الذي تدخل الرئيس جمال عبد الناصر مع الرئيس اللبناني شارل حلو لإقراره في مجلس النواب. وكان من المفترض وفق ما نص عليه ذلك الإتفاق أن يجري تنظيم نشاط المقاومة الفلسطينية في لبنان بالإتفاق مع السلطات اللبنانية في صيغة تضمن للبنان سيادته على أرضه. وكان مشروطاً في ذلك الإتفاق، كما نصت بنوده على ذلك، أن يبقى اتفاقاً سرياً حتى لا يؤدي إعلانه إلى إعطاء مبررات لإسرائيل كي تقوم بعدوانها على لبنان. وكانت إسرائيل، في أواخر عام 1968 قد وجهت إنذاراً خطيراً للبنان من خلال قصفها مطار بيروت الدولي وتحطيم الطائرات العائدة لشركة طيران الشرق الأوسط المدنية الرسمية. لكن من المؤكد أن "اتفاق القاهرة" سرعان ما قدم الشروط الضرورية التي كان يسعى إليها عرفات والقيادة الفلسطينية لتحويل لبنان إلى ساحة عمل ونضال أكثر ملاءمة مما كانت عليه الحال في الأردن. وتلاقت في ذلك مصالح قوى لبنانية في صراعها مع القوى التي كانت تتحكم بالسلطة وتستأثر بها. وهي القوى التي تشكلت في الحرب الأهلية من الأحزاب المسيحية واتخذت لها اسم الجبهة اللبنانية. واختلط في الصراع الجانب السياسي الداخلي مع الجانب الإجتماعي مضافاً إليهما الجانب القومي المتعلق بالصراع العربي – الإسرائيلي، وبدور لبنان فيه.

في أواخر ذلك العام (1969) تشكلت منظمة قوات الأنصار كمنظمة للمقاومة باسم الشيوعيين العرب. وتوزعت جهود قيادة الحزب الشيوعي اللبناني في اتجاه تأمين الشروط المادية والتسليحية للمنظمة ولتأهيل الكوادر العسكرية للقيام بمهمات المنظمة. وعندما تبين في وقت لاحق أن منظمة قوات الأنصار غير متوفرة شروط استمرارها، أنشأ الحزب الشيوعي اللبناني منظمة "الحرس الشعبي" كمنظمة لبنانية للمقاومة. ووفر لها الشروط الضرورية لعملها. واستحضر من التاريخ تجارب حركات المقاومة في أوروبا وفي الفييتنام وكوبا. وأرسل الوفود في كل الإتجاهات. ودخل في الوقت ذاته في معركة سياسية لإقناع الإتحاد السوفياتي والدول الإشتراكية بضرورة تقديم الدعم للحزب. وبذلت قيادة الحزب جهوداً كبيرة لإقناع السوفييت بخاصة وسائر البلدان الإشتراكية والأحزاب الشيوعية في أوروبا بعامة بضرورة إقامة علاقات مع قيادة منظمة التحرير ومع ياسر عرفات شخصياً كرئيس للمنظمة وكقائد للثورة. وحقق الحزب في عمله ذاك نجاحات مهمة. وكان من نتائج تلك الجهود أن الإتحاد السوفياتي والدول الإشتراكية بدأوا يقيمون علاقات غير رسمية في البداية ثم رسمية فيما بعد مع المنظمات الفلسطينية. ومن طرائف تلك المرحلة أن علاقات الدول الإشتراكية مع المنظمات الفلسطينية بدأت تصبح أكثر حميمية وأكثر عمقاً في بعض الأحيان من علاقتهم بالحزب الشيوعي اللبناني. ولم ينزعج الحزب من ذلك، في مرحلة أولى. لكنه بدأ يطرح في مراحل لاحقة أسئلة كثيرة في الإيجاب وفي السلب حول معنى تلك المفارقة في العلاقات.

وأذكر في هذا السياق أنني ذهبت مع رفيقي نديم عبد الصمد إلى دمشق في أواخر عام 1969 لزيارة ياسر عرفات. فاستقبلنا بحرارة. وزودنا، بطلب منا، بكمية من الأسلحة القديمة نقلتها مع صديقي المحامي محمود طبو وأشقائه إلى مدينة طرابلس بسياراتهم الأميركية عبر الحدود في مغامرة هي الأولى من نوعها في حياتي.

ومرت المغامرة بسلام. وفوجئت ذات يوم بحديث مع السفير السوفياتي سولداتوف أبلغني فيه أن "أبو عمار" قد زود حزبنا بما يحتاج إليه من سلاح للمقاومة تأكيداً منه على عمق العلاقة بيننا وبينه من جهة، وتأكيداً منه للسوفيات من جهة ثانية، على العلاقة الودية التي كانت تتوطد معهم باستمرار. وعندما رويت للسفير حقيقة ما جرى وأعلمته بنوع وبكمية تلك الأسلحة ضحكنا. ومعروف أن السلاح الذي تزودنا به لعملنا في المقاومة ثم في الحرب الأهلية كان سلاحاً سوفياتياً بالكامل.

وأذكر، في السياق ذاته أيضاً، أن الرئيس الألماني هونيكر قال للرئيس السوفياتي برجنيف عندما زار ألمانيا في عام 1973، جواباً عن سؤاله عن كيفية حضور ياسر عرفات المهرجان العالمي للشباب والطلاب الذي عقد في برلين، بأن الحزب الشيوعي اللبناني هو الذي لعب دوراً أساسياً في ذلك. وكان نديم عبد الصمد هو الذي قام بذلك الدور في حينه.

انتقلت قيادة الثورة الفلسطينية بعد مجازر أيلول في الأردن (1970) إلى لبنان، ومعها كوادرها ومقاتلوها ومؤسساتها العسكرية والأمنية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية. دخلت إلى لبنان بقوة دفعة واحدة. ثم استقرت فيه. وفي ضوء قرارات مؤتمر القمة الذي عقد في القاهرة في أيلول من عام 1970، وعلى قاعدة اتفاق القاهرة الموقع في أواخر عام 1969، انتقلت الثورة الفلسطينية هكذا وببساطة، وسط تعاطف القوى السياسية اللبنانية، يسارها على وجه الخصوص ويمينها كذلك المتمثل بحزب الكتائب وبأحزاب أخرى من اليمين المسيحي. وبرز ياسر عرفات على الفور ومن دون صعوبات قائداً للثورة الفلسطينية بعد أن كانت قد تعرضت للقمع والقهر والقتل. وصار في الآن ذاته مع ثورته مقاتلاً شجاعاً بالنيابة عن الأمة العربية بأسرها، ليس لتحرير فلسطين وحسب، ولا ضد العدوان الإسرائيلي وحسب، بل انتصاراً للكرامة العربية المهدورة التي داستها هزيمة الجيوش العربية في

حرب حزيران (1967). وسرعان ما صار الوجود الفلسطيني السياسي والمسلح في لبنان، داخل المخيمات المنتشرة في مختلف المناطق اللبنانية وخارج تلك المخيمات، واقعاً شرعياً ومشرعاً معترفاً به ومقراً بوجوده من قبل اللبنانيين. وسرعان ما صار ياسر عرفات زعيماً فلسطينياً وعربياً، وحتى لبنانياً في لبنان معترفاً به ومقراً بوجوده وبدوره وبحجمه الذي كان يكبر باستمرار. ونشأت، مع الوقت في تلك الظروف وبالتدريج، دولة فلسطينية بكامل مؤسساتها في لبنان، دولة ذات سلطة وسطوة بقيادة ياسر عرفات رئيسها المتوج بالأمر الواقع. ولم تؤثر بعض الأحداث التي كانت تقع هنا وهناك في تغيير ذلك الواقع الجديد بكل مكوناته. وحين اغتالت المخابرات الإسرائيلية بقيادة باراك الزعماء الثلاثة، أبو يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر في قلب بيروت في عام 1973، بعد اغتيال غسان كنفاني في 1972 ومحاولة اغتيال كل من أنيس الصايغ وبسام أبو شريف، خرج لبنان كله في وداعهم في واحدة من أكبر المظاهرات التي شهدتها العاصمة بيروت، بمشاركة جيمع القوى السياسية يسارها ويمينها على حد سواء. وفي ظل الوجود الفلسطيني في لبنان الذي تكرس واقعاً موضوعياً نشطت حركة سياسية واسعة ترافقت مع نضالات اجتماعية شاركت فيها جميع الفئات: العمال والمزارعون والطلاب والنساء والمثقفون. وشملت البلاد من أقصاها إلى أقصاها. وشكلت تلك الحركة عصراً ذهبياً في العمل السياسي والإجتماعي والثقافي. وفي مطلع عام 1972 عقد الحزب الشيوعي اللبناني مؤتمره الثالث بمشاركة ممثلين لثمانين حزباً شيوعياً واشتراكياً وديمقراطياً كان من بينها أربعة وعشرين حزباً عربياً. وتشكلت بمبادرة من الحزب الشيوعي اللبناني لجنة من ممثلي الأحزاب العربية للبحث في صيغة عمل عربي مشترك. وانتهت المناقشات بين تلك الأحزاب إلى الإتفاق على تأسيس "الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية " التي عقدت مؤتمرها الأول في خريف العام ذاته، وانتخبت كمال

جنبلاط رئيساً لها ونديم عبد الصمد عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني أميناً تنفيذياً.

استمر الوضع طبيعياً، أو شبه طبيعي في البلاد مع دور متعاظم للدولة الفلسطينية في لبنان، إلى ما بعد حرب تشرين (1973) التي قادتها مصر وسوريا لاستعادة الأرض المحتلة. وهي الحرب التي انتصر فيها الجيشان بتحرير أرض مصر في سيناء وأرض سوريا في الجولان، ثم هزما بعد النصر بفعل سياسة الرئيس السادات. والأحداث والوقائع باتت معروفة. وفي أعقاب تلك الحرب ذهب الرئيس اللبناني سليمان فرنجية إلى الأمم المتحدة، وذهب إليها من لبنان ياسر عرفات رئيساً لفلسطين. وتحدثا كلاهما في المنظمة الدولية كرئيسين لدولتين على أرض لبنان. وكان ذلك الحدث تكريساً لياسر عرفات زعيماً عربياً ودولياً في آن. وتكرس عالمياً واقع وجود دولته في لبنان وليس على أرض فلسطين. من هذا الحدث بالذات بدأت الإشكالية الكبرى في لبنان التي تحولت إلى مشكلة، ثم إلى حرب، ثم إلى مأساة لبنانية وفلسطينية في الآن ذاته. إذ لم تلبث الحرب الأهلية أن اندلعت حول مسألتين كبيرتين. المسألة الأولى تتعلق بالوضع غير الطبيعي الذي ظل يتفاقم على امتداد النصف الأول من سبعينات القرن الماضي الذي عبّر عنه تحول الثورة الفلسطينية إلى دولة داخل الدولة اللبنانية على غرار ما كان قد حدث في الأردن. المسألة الثانية تتعلق بالخلل الذي شارك في صنعه كل من الحركة الوطنية اللبنانية، والشيوعيون جزء أساسي منها ومن قيادتها، وخصمها الداخلي المتمثل بالجبهة اللبنانية، الخلل المتعلق بموقع ودور لبنان في العالم العربي، وبموقعه وبدوره تحديداً في الصراع العربي مع إسرائيل. وهو الخلل الذي تمثل في عدم القدرة على تحديد معنى ذلك الموقع وذلك الدور للبنان. وتتحدد مسؤولية الحركة الوطنية بأنها وافقت على ما كانت الثورة الفلسطينية قد أذاعته وأشاعته وحولته إلى قرار قومي، وهو أن

القضـية الفلسـطينية هـي القضـية القوميـة المركزيـة لكـل العـرب، وأنـه يحـق للثـورة الفلسطينية بموجب ذلك أن تتدخل في شؤون البلدان العربية جميعها، وأن تمارس نضالها لتحرير فلسطين من داخل تلك الدول حتى ولو أدى ذلك إلى إحداث الإساءة والأذى لهذه الدولة ولمؤسساتها وإلى تعطيل دورها. أما مسؤولية الجبهة اللبنانية فتتمثل بأنها كانت ترفض، انطلاقاً من هزيمة العرب في حرب حزيران، أن تعطي للبنان الدور الذي يعود له بالإشتراك مع البلدان العربية في القضية الفلسطينية وفي مجمل القضايا العربية الأخرى. وعندما تعذر الوصول إلى اتفاق بين الإتجاهين حول تحديد دور لبنان اندلعت الحرب الأهلية. إذ كانت تلك المسألة هي الأساس في تحول الصراع العربي القديم والمتجدد على لبنان إلى حرب أهلية. تضاف إلى تلك المسألة تعظيماً لها وتعميقاً للصراع حولها إلى حدوده القصوى.

هذا فيما يتعلق بالقوى السياسية اللبنانية وبمسؤوليتها عن وقوع الحرب الأهلية. لكن مسؤولية كبيرة تعود للقوى الفلسطينية ولياسر عرفات شخصياً كقائد للثورة. وتتمثل هذه المسؤولية بكون الثورة قد تحولت إلى دولة، وأن هذه الدولة كانت على أرض غير أرض فلسطين، وأن هذه الدولة تحولت إلى قوة ذات دور وتأثير في الحياة اليومية اللبنانية. وكانت تنافس الدولة اللبنانية وتتعارض معها في مهماتها السياسية والإجتماعية والأمنية. وتحولت إلى مرجعية سياسية واجتماعية بجمهور كبير من اللبنانيين ومن اليساريين بمكوناتهم المختلفة لا سيما من الطائفيين الإسلاميين الذين كانوا يطالبون بالمشاركة في السلطة ضد الهيمنة المارونية المسيحية عليها بعد الإستقلال.

مجمل القول، فيما أسوقه من حديث عن المسؤولية في وقوع الحرب الأهلية، أن وقوعها كان جريمة بحق لبنان وبحق فلسطين في الآن ذاته. وهو ما دلت كل وقائع الحرب وما دلت عليه نتائجها التي ما تزال تستكمل فصولاً في شروط جديدة.

وللتاريخ، أحب أن أشير إلى بعض مواقف الحزب الشيوعي اللبناني في هذا الصدد. وكنت واحداً من قادة الحزب الذين ساهموا في صياغة تلك المواقف التي لم نستكملها ولم ندافع عنها. بل إننا تنازلنا عنها انسجاماً مع التحالفات اللبنانية التي كنا جزءاً مكوناً وأساسياً فيها المتمثلة بالحركة الوطنية اللبنانية وامتداداتها العربية، ولأسباب عديدة أخرى تتصل بسياسات الحزب ذاته في تلك الحقبة الصعبة وبتحليلات قيادته، في الصواب فيها وفي الخطأ. ولعل أهم مواقف الحزب تلك هي التي حاول الحزب أن يتمايز فيها بقدر معين عن مواقف القيادة الفلسطينية. وهي المواقف التي تمثلت برفضنا المبدئي للحق المطلق للثورة الفلسطينية في التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان العربية، استناداً إلى تلك الموضوعة التي تتصل بالمركزية المعطاة للقضية الفلسطينية بين القضايا العربية من دون حدود. وكان من نتائج بعض مواقفنا تلك نشوء بعض الخلافات مع قيادة الثورة ومع قائدها ياسر عرفات على وجه الخصوص. ولأن الخلافات كانت في ذلك الظرف التاريخي تسيئ إلى التحالف، الذي كنا نعتبره تحالفاً استراتيجياً، لم يستمر الحزب في الدفاع عن مواقفه تلك. وهكذا دخل الحزب في الحرب الأهلية باسم الحركة الوطنية التي كان أحد مؤسسيها، وباسم التحالف الذي كان قائماً بين الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية، من دون أن يقدر النتائج الخطيرة التي كان يشير إليها احتمال وقوع الحرب الأهلية قبل اندلاعها، ومن دون أن يقرأ بوضوح الخطورة التي كان يشير إليها تفاقم التناقضات والصراعات في المجتمع اللبناني بين مكوناته السياسية والطائفية.

وللتاريخ أيضاً، أحب أن أذكر بأن تلك السنوات الأثنتي عشر لقيام الدولة الفلسطينية في لبنان كانت سنوات صراع متواصل داخل صفوف الثورة الفلسطينية، وبينها وبين سوريا، وبينها وبين قوى لبنانية مختلفة معها في قضايا أساسية وفي قضايا تتصل بالسلوك اليومي للقيادات السياسية الفلسطينية وللعناصر المسلحة

التابعة لتنظيماتها. وكان سكان منطقة الجنوب الذين احتضنوا المقاومة من أكثر الذين عانوا من تلك الصراعات المسلحة، ومن ذلك السلوك السيء الذي مارسته كل من المنظمات الفلسطينية وأحزاب الحركة الوطنية. يضاف إلى ذلك أن "أبو عمار"، الذي كان شريكاً لكمال جنبلاط في قيادة تحالف الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية، كان يفرخ على الدوام تنظيمات لبنانية مستقلة عن الحركة الوطنية، لكي يثبت لحليفته الحركة الوطنية أنها لا تمثل كل القوى الوطنية اللبنانية. وكانت تلك السياسة من قبله من أسوأ ما ارتبط بمواقفه في تلك الفترة العصيبة من تاريخ وجود الثورة الفلسطينية في لبنان في شكل دولة داخل الدولة. وكانت بعض الإعتراضات على تلك السياسة من قبل الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني جورج حاوي تقود إلى نفور وإلى مقاطعة من قبل زعيم الثورة له. وكنا نبذل جهوداً كبيرة لإعادة العلاقات إلى مجراها بين الزعيمين. ولم يسلم كمال جنبلاط من تلك المواقف إزاءه عندما كان يبدي اعتراضاً على بعض تلك الممارسات الخاطئة.

غير أن من فضائل براغماتية ياسر عرفات، التي كان يحاول بالإستناد إليها أن يوحد بين العمل السياسي والعمل العسكري، أنه تمكن في عام 1974 من إقناع الفصائل الفلسطينية بوضع برنامج مرحلي للثورة مؤلف من عشرة بنود لإقامة الدولة الفلسطينية على الأرض التي يتم تحريرها، ومتابعة النضال، انطلاقاً من ذلك الإنجاز، لتحرير باقي الأراضي والوصول إلى كامل الحقوق القومية للشعب الفلسطيني. وتم إقرار ذلك البرنامج في دورة المجلس الوطني الفلسطيني التي عقدت في القاهرة في ذلك العام. وكان ذلك البرنامج يقضي باعتماد سياسة مرنة تتيح للثورة الفلسطينية أن تكسب لقضيتها أكبر عدد من الحلفاء في العالم، بما في ذلك في الداخل الإسرائيلي ذاته الذي كانت قوى يسارية يهودية ومعها حركة السلام الآن تساند الحق الفلسطيني في إقامة دولته على أرض فلسطين وفق قرار التقسيم في

حدود الرابع من حزيران من عام 1967 وعاصمتها القدس الشرقية. كانت الحرب الأهلية في لبنان في ظل تلك الظروف تتصاعد عنفاً وتدميراً وتتعاظم فيها الأحقاد بين الحركة الوطنية اللبنانية المتحالفة مع الثورة الفلسطينية وجمهورهما وبين الجبهة اللبنانية وجمهورها. وكان فرقاء الصراع في الحرب غارقين في صراعاتهم داخل أحلامهم وأوهامهم في الإنتصار فيها، غافلين عن النتائج الكارثية التي كانت الحرب ستقودهم جميعهم إليها. وكانت القوى الخارجية العربية والإقليمية والدولية تراهن كل منها على تحقيق مطامحها ومطامعها عندما تنتهي الحرب. إلا أن ثمة أسئلة كبيرة تتعلق بالشروط التي قادت إلى الحرب لم يجر حتى الآن الحسم في الإجابة عنها بوضوح. وهي أسئلة تتعلق باللحظة التي تم فيها اندلاع الحرب وباللحظة التي سبقت اندلاعها وباللحظة التي تلت اندلاعها وأدت إلى استمرارها. واحد من تلك الأسئلة يتمثل بلغز الثالث عشر من نيسان الذي شهد مرور حافلة تنقل فلسطينيين تجتاز الشارع الذي يحمل اسم بيار الجميل. لماذا اختار ركاب الحافلة المرور من ذلك الشارع في تلك اللحظة بالذات؟ من كان البادئ بإطلاق النار؟ ولماذا جرى إطلاق النار الخ...؟ ولماذا تحولت العاصمة بيروت في لحظة إلى ساحة قتال شرسة، وإلى متاريس سرعان ما حوّلت المدينة الواحدة إلى مدينتين، وإلى جبهتي قتال بكل الأسلحة؟ وثمة سؤال آخر يتصل بمسعى قمت به مع جورج حاوي، من دون إذن من قيادة حزبنا ومن دون إذن من قيادة الحركة الوطنية، لفتح حوار مع حزب الكتائب ومع البطريركية المارونية بواسطة غسان تويني وميشال إده. جوهر السؤال الذي لم يجد جواباً من أحد هو: لماذا فشل ذلك المسعى في ذلك التاريخ بالذات قبيل ذلك السبت الأسود الذي استكمل بما سمّي حرب الفنادق؟ وكان ذلك في خريف عام 1975. سؤال ثالث يعود إلى ربيع العام الثاني من الحرب. ويتمحور حول مسألتين: المسألة الأولى تتصل بقرار توسيع الحرب الأهلية وصولاً بها إلى الجبل

المسيحي. من قرر ذلك ولماذا ومن شجع عليه؟ وهل صحيح أننا كنا نبتغي احتلال بكفيا والنزول منها إلى جونيه، نحن تحالف أحزاب الحركة الوطنية بقيادة كمال جنبلاط مع المنظمات الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات؟ ثم لماذا أصر ياسر عرفات، وأقنع كمال جنبلاط بموقفه، على مواجهة القوات السورية بالسلاح بطلب من الجبهة اللبنانية، عندما قررت الدخول إلى لبنان وبقرار عربي ودولي وبسماح إسرائيلي؟ وما هو دور الرئيس أنور السادات في ذلك القرار؟ ومعروف أن الحزب الشيوعي كان يحذر من خطر الإنجراف في مواجهة مسلحة مع القوات السورية كانت في نظره محكومة بالهزيمة. لكن الحزب عاد فوافق على الدخول في مقاومة القوات السورية بعد أن عجز عن إقناع حلفائه برأيه. وقدم تضحيات كبيرة في تلك المواجهة مع القوات السورية. ثم لماذا توقف عرفات عن القتال وترك حلفاءه لوحدهم في المواجهة تلك، ولماذا وبأية شروط ذهب إلى مؤتمري القمة العربية في الرياض والقاهرة اللذين قررا تكليف سوريا بقيادة قوات الردع العربية ثم بانتشارها لوحدها في الدخول في الحرب الأهلية طرفاً في صيغ مختلفة وصولاً بها إلى اتفاق الطائف في عام 1989؟

إن ما أرمي إليه من الإشارة إلى تلك الأسئلة هو للتدليل على التناقض الذي كان يحكم السياسة الرسمية للثورة الفلسطينية في شخص قائدها ياسر عرفات. وإذا كنت قد توقفت عند ما اعتبرته براغماتياً في سياسة قائد الثورة فلكي أقول بأنها لم تكن كافية لتغطي الجوانب السلبية في الممارسات السياسية للثورة ولقيادتها على الأرض، لاسيما خلال فترة الحرب الأهلية. ورغم أن الشعب الفلسطيني قد دفع الثمن الباهظ في الحرب، في مخيماته وبالأخص منها مخيم تل الزعتر وصولاً إلى مجازر مخيمي صبرا وشاتيلا، ورغم أن الدور السوري في الحرب خصوصاً كان يغذي العديد من الصراعات لكي يكون هو الحكم، فإن الوجود الفلسطيني في لبنان في شكل دولة

داخل الدولة قد انتهى مع الغزو الإسرائيلي للبنان في عام 1982، وبعد حصار للعاصمة بيروت دام ثلاثة أشهر قاسية. انتهى ذلك الوجود في شكل مأساة. وخرجت بيروت، بجماهيرها وقواها السياسية وقيادتها لتوديع قيادة الثورة الفلسطينية ومقاتليها في تظاهرة لم تشهد العاصمة اللبنانية نظيراً لها. وكان ذلك الوداع عميق الدلالات، متناقضاً في معانيه وفي المشاعر الإنسانية التي كانت تعبر عنه.

خرج أبو عمار مع الثورة من بيروت في اتجاه تونس التي اختارها بديلاً من سوريا، مهيئاً بذلك الشروط لممارسة الثورة الفلسطينية نشاطها ومواقفها في نوع مختلف من الإستقلالية عن التأثيرات المباشرة التي كانت تمارسها القيادة السورية عليها. وقد كان لاختيار أبو عمار تونس معنى بالغ الدلالة. ذلك أن "أبو عمار" كان يسعى دائماً من أجل تأمين الشروط الضرورية من وجهة نظره لتحقيق استقلالية للقرار الوطني الفلسطيني. وكان الإستقلال في نظره يعني الإستقلال عن الدور السوري، الذي كانت القيادة السورية منذ البدايات تعتبر أن لها الحق من دون جميع الدول العربية في لعب دور أساسي في القضية الفلسطينية وفي كل ما يتصل بسياساتها. وهو ما سعت القيادة السورية بكل الوسائل لتحقيقه من خلال العمل على تقسيم الفلسطينيين وإتباع من تستطيع إتباعه من التنظيمات إلى موقعها وموقفها في تحديد الأساسي من مواقف الثورة الفلسطينية في العمل السياسي وفي العمل العسكري على حد سواء. لذلك لم تتأخر القيادة السورية، بعد خروج أبو عمار وأركان قيادته وجيشه من لبنان إلى تونس، في إحداث انقسام في حركة "فتح"، وفي إنشاء تجمع لعدد من الفصائل الفلسطينية يناهض ويناقض في مواقفه المواقف التي كان يتخذها عرفات في المرحلة التي خرجت فيها الثورة من لبنان.

بانتقال الثورة بقيادة ياسر عرفات من لبنان إلى تونس بدأت الرحلة الحقيقية في اتجاه أرض الوطن، أرض فلسطين. لكن تلك الرحلة كانت شديدة الصعوبة حافلة بالأخطاء وبالمغامرات في السياسة وفي وسائل وأدوات الكفاح الوطني. وكان الطريق إلى فلسطين في تلك الرحلة وعراً، مليئاً بالأشواك وبالقنابل المتفجرة. ومع ذلك فقد أصر ياسر عرفات على متابعة السير في رحلته إلى نهايتها، سالكاً ذلك الطريق إياه بكل وعورته وبالألغام الكثيرة في الإتجاه الذي كان يسعى لأن يقوده إلى فلسطين بأي ثمن. وكان يعتبر أن الشرط الضروري لمتابعة السير في ذلك الإتجاه يتحقق بتأمين الإستقلالية للقرار الوطني الفلسطيني في فهمه هو له وفي تحديده لشروطه. لكن استقلالية القرار الوطني الفلسطيني، بالمعنى الذي كان يريده ياسر عرفات، كان صعباً من الناحية الموضوعية في تلك الشروط التاريخية. إذ أن الإستقلالية في القرار، في مثل القضية الفلسطينية التي يصر أصحابها والمرتبطون بها من العرب على اعتبارها القضية المركزية بين القضايا العربية، لا يمكن أن تكون استقلالية مطلقة. إذ كان شبه مستحيل في تلك الظروف أن تكون القضية الفلسطينة منفصلة عن الواقع العربي بكافة جوانبه وعن سائر القضايا المتصلة به. إستقلالية القرار الفلسطيني كانت إذن، في تلك الظروف، استقلالية نسبية. وكان من الطبيعي أن يحدد الجانب الفلسطيني، باعتباره صاحب القضية، مضمون وآليات ذلك القرار في نسبيته. لكن شرط القيام بذلك الدور الفلسطيني هو أن يأخذ أصحابه في الإعتبار بواقعية ما هو مشترك بين القضايا العربية الأخرى وبين القضية الفلسطينية. وأهمية هذا الترابط بين ما هو فلسطيني وما هو عربي أنه ينبغي أن يقوم على توازن صحيح لا يطغى فيه الدور العربي على الدور الفلسطيني، ولا يتحرر فيه الدور الفلسطيني من علاقته الضرورية بالواقع العربي. ذلك أن أي مبالغة من قبل الفلسطينيين بالإستقلال المطلق عن القضايا العربية وعن الواقع العربي كان سيؤدي،

وقد أدى فعلاً، إلى اتجاهين. يتمثل الإتجاه الأول في ترك الدول العربية للفلسطينيين في الشكل يواجهون مصيرهم بأنفسهم وتركهم يتحملون تبعات تخبطهم. ويتمثل الإتجاه الثاني بالتدخل غير المباشر من قبل الدول العربية في القرار الفلسطيني المستقل من خلال تعميق الإنقسامات بين الفلسطينيين، ودعم جهات معينة منهم ضد رأس الثورة المتمثل بياسر عرفات صاحب الرأي المطالب بالإستقلال الكامل للقرار الوطني الفلسطيني. وقد شهدنا وما نزال نشهد، لا سيما بعد خروج قيادة الثورة ومؤسساتها من لبنان إلى تونس ثم إلى الداخل الفلسطيني، كيف برز خطر هذين الإتجاهين على الثورة وبلوغه أقصى حدود التدمير. إذ لم يأخذ ياسر عرفات وشركاؤه في قيادة الثورة الفلسطينية الدروس الكافية من الأخطاء التي ارتكبوها في لبنان ضد شعبهم بالذات وضد الشعب اللبناني. وهي الأخطاء التي جعلت الإجتياح الإسرائيلي للبنان في عام 1982 يجتاز الجنوب اللبناني في خلال يوم ونصف اليوم من دون مقاومة وصولاً إلى العاصمة بيروت. فمن المعروف أن الوضع في الجنوب اللبناني كان قد حوّل جمهور اللبنانيين والفلسطينيين، بفعل الصراعات والتجاوزات التي طالتهم، غير عابئين بالإجتياح الإسرائيلي وغير مهيئين نفسياً لمواجهته بفعل معاناتهم. وكان من الأخطاء الأخرى الفادحة لياسر عرفات أنه، في العام التالي لخروجه من لبنان، عاد إلى لبنان متسللاً في عام 1983. عاد إلى مدينة طرابلس وتحالف مع "حركة التوحيد الإسلامية" بقيادة السلفي سعيد شعبان. وأدى عرفات تحالفه ذاك إلى تحويل طرابلس إلى دويلة سلفية يحكمها ويتحكم بها عدد من السلفيين المتطرفين باسم الإسلام ضد قيمه الروحية. وقد مارس هؤلاء فيها أبشع أنواع الموبقات، ومارسوا القتل على الهويتين الحزبية والطائفية. وكان من بين ضحايا تلك الفترة، في ظل سلطة ياسر عرفات على المدينة مع حليفه سعيد شعبان، 35 مناضلاً شيوعياً تم قتلهم في أحد مراكز الحزب في المدينة. وقد أرسلت لعرفات،

في أعقاب تلك المجزرة مع أحد الأصدقاء المشتركين، نص المذكرة التي وضعها الحزب الشيوعي احتجاجاً على المجزرة. وكانت المذكرة موجهة إلى كافة أحزاب اليسار وأحزاب حركة التحرر الوطني في العالم العربي وإلى الأحزاب الشيوعية في العالم كافة. وأذكر أنني فوجئت في ذات ليلة بعرفات يكلمني بالهاتف بعد تلقيه المذكرة. وكان عتاب ونقاش على الهاتف استمر ساعة ونصف الساعة حول القضية موضوع المذكرة، وحول السياسة الرسمية للثورة بقيادته، وحول الأخطاء المتراكمة في تلك السياسة حول المجزرة التي ذهب فيها 35 مناضلاً شيوعياً في المدينة التي كان هو قائدها مع تحالفه مع السلفي سعيد شعبان.

انقطعت العلاقة التاريخية بين الحزب الشيوعي اللبناني وياسر عرفات بفعل ذلك الحدث المأساوي الذي جرى خلال وجود ياسر عرفات في طرابلس. واستمرت القطيعة أربعة أعوام. وفي عام 1987 جرى أول لقاء بين قيادة الحزب ممثلة بجورج حاوي الأمين العام للحزب وأنا بصفتي نائباً للأمين العام. وتم ذلك اللقاء خلال الإحتفالات التي جرت في موسكو بالذكرى السبعين لثورة أوكتوبر التي كان يشارك فيها عرفات. وكان وفدنا مؤلفاً من جورج حاوي ومني. تم اللقاء في الشقة التي كنت أقيم فيها ضيفاً على اللجنة المركزية للحزب السوفياتي في ذلك الحين. وكان هدف اللقاء البحث في تصحيح علاقة قيادة الثورة في شخص ياسر عرفات، ليس فقط مع الحزب الشيوعي اللبناني، وإنما مع كل القوى الوطنية اللبنانية الشريك التاريخي للثورة الفلسطينية في أعوام طويلة من النضال السياسي ومن المقاومة. وكان اللقاء حافلاً بالصراحة والود. ثم تكرر اللقاء في العام التالي في براغ بحضور محمود درويش وتيسير قبعة ومشاركة جورج حاوي وجورج البطل من الحزب الشيوعي اللبناني.

في عام 1988 وقع حدث تاريخي كان ياسر عرفات بطله. وهو إعلان الإستقلال الذي تحدث فيه عرفات عن دولة فلسطين. وقد جاء ذلك في الدورة التاسعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في الجزائر. وهو الإعلان الذي صاغه الشاعر محمود درويش وقرأه ياسر عرفات. ونظراً للأهمية التاريخية لذلك الإعلان أنقل بعض الفقرات الأساسية منه:

"على أرض الرسالات السماوية إلى البشر، على أرض فلسطين، ولد الشعب العربي الفلسطيني. نما وتطور، وأبدع وجوده الإنساني والوطني عبر علاقة عضوية، لا انفصام فيها ولا انقطاع بين الشعب والأرض والتاريخ... بالثبات الملحمي في المكان وفي الزمان، صاغ شعب فلسطين هويته الوطنية، وارتقى بصموده في الدفاع عنها إلى مستوى المعجزة. فعلى الرغم مما أثاره سحر هذه الأرض القديمة وموقعها الحيوي على حدود التشابك بين القوى والحضارات، من مطامح ومطامع وغزوات كانت تؤدي إلى حرمان شعبها من إمكانية تحقيق استقلاله السياسي، إلاَّ أنَّ ديمومة التصاق الشعب بالأرض هي التي منحت الأرض هويتها، ونفخت في الشعب روح الوطن... ومن جيل إلى جيل، لم يتوقف الشعب العربي الفلسطيني عن الدفاع الباسل عن وطنه. ولقد كانت ثورات شعبنا المتلاحقة تجسيداً بطولياً لإرادة الاستقلال الوطني. ففي الوقت الذي كان فيه العالم المعاصر يصوغ نظام قيمه الجديدة، كانت موازين القوى المحلية والعالمية تستثني الفلسطيني من المصير العام. مرة أخرى، إن العدل وحده لا يسيِّر عجلات التاريخ... وهكذا انفتح الجرح الفلسطيني الكبير على مفارقة جارحة: فالشعب الفلسطيني الذي حُرم من الاستقلال وتعرَّض وطنه لاحتلال من نوع جديد، قد تعرَّض لمحاولة تعميم الأكذوبة القائلة " إنَّ فلسطين هي أرض بلا شعب". وعلى الرغم من هذا التزييف التاريخي، فإنَّ المجتمع الدولي، في المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم لعام 1919، وفي

معاهدة لوزان عام 1923، قد اعترف بأنَّ الشعب العربي الفلسطيني، شأنه شان الشعوب العربية الأخرى التي انسلخت عن الدولة العثمانية، هو شعب حر مستقل... ومع الظلم التاريخي الذي لحق بالشعب الفلسطيني بتشريده، وبحرمانه من حق تقرير المصير، إثر إقرار الجمعية العامة رقم 181 عام 1947، الذي قسَّم فلسطين إلى دولتين، عربية ويهودية، فإنَّ هذا القرار ما زال يوفِّر شروطاً للشرعية الدولية تضمن حق الشعب العربي الفلسطيني في السيادة والاستقلال الوطني... واستناداً إلى الحق الطبيعي والقانوني للشعب الفلسطيني في وطنه فلسطين، وتضحيات أجياله المتعاقبة دفاعاً عن حرية وطنهم واستقلاله وانطلاقاً من قرارات القمم العربية، ومن قوة الشرعية الدولية التي تجسدها قرارات الأمم المتحدة منذ عام 1947، ممارسة من الشعب العربي الفلسطيني لحقِّه في تقرير المصير والاستقلال السياسي والسيادة فوق أرضه، فإنَّ المجلس الوطني يعلن، باسم الله وباسم الشعب العربي الفلسطيني، قيام دولة فلسطين فوق أرضنا الفلسطينية، وعاصمتها القدس الشريف... إنَّ دولة فلسطين هي للفلسطينيين أينما كانوا. فيها يطورون هويتهم الوطنية والثقافية، ويتمتعون بالمساواة الكاملة في الحقوق، وتصان فيها معتقداتهم الدينية والسياسية وكرامتهم الإنسانية، في ظل نظام ديمقراطي برلماني يقوم على أساس حرية الرأي وحرية تكوين الأحزاب ورعاية الأغلبية حقوق الأقلية واحترام الأقلية قرارات الأغلبية، وعلى العدل الاجتماعي والمساواة وعدم التمييز في الحقوق العامة على أساس العرق أو الدين أو اللون أو بين المرأة والرجل، في ظل دستور يؤمن سيادة القانون والقضاء المستقل على أساس الوفاء الكامل لتراث فلسطين الروحي والحضاري في التسامح والتعايش السمح بين الأديان عبر القرون... إنَّ دولة فلسطين هي دولة عربية، وهي جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، من تراثها وحضارتها، ومن طموحها الحاضر إلى تحقيق أهدافها في التحرر والتطور والديمقراطية والوحدة. وهي، إذ تؤكد التزامها بميثاق جامعة الدول

العربية، وإصرارها على تعزيز العمل العربي المشترك، تناشد أبناء أمتها مساعدتها على اكتمال ولادتها العملية، بحشد الطاقات وتكثيف الجهود لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي... وتعلن دولة فلسطين التزامها بمبادئ الأمم المتحدة وأهدافها، وبالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والتزامها كذلك بمبادئ عدم الانحياز وسياسته... وإذ تعلن دولة فلسطين أنها دولة محبة للسلام ملتزمة بمبادئ التعايش السلمي، فإنها ستعمل مع جميع الدول والشعوب من أجل تحقيق سلام دائم قائم على العدل واحترام الحقوق، تنفتح في ظله طاقات البشر على البناء، ويجري فيه التنافس على إبداع الحياة وعدم الخوف من الغد، فالغد لا يحمل غير الأمان لمن عدلوا أو ثابوا إلى العدل... ".

في أواخر عام 1988، وفي أعقاب إعلان الإستقلال المشار إليه، انتقلت الجمعية العامة للأمم المتحدة مع ممثلي 159 بلداً، وبحضور 50 وزيراً للخارجية من نيويورك إلى جنيف للإستماع إلى خطاب عرفات، بعدما رفضت إدارة ريغان إعطاء عرفات تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأميركية بسبب تهمة الإرهاب الموجهة إليه. في ذلك الإجتماع التاريخي أعلن ياسر عرفات مجموعة من المواقف قدم فيها لوزير الخارجية الأميركية جورج شولتز ما كان يريده منه من إدانة واضحة للإرهاب والإقرار بوجود إسرائيل والإعتراف بالقرار 242. وعلى هذا الأساس فتحت الولايات المتحدة لأول مرة حواراً مباشراً مع المنظمة. وخلال مؤتمر صحافي عقده أثناء وجوده في جنيف رد عرفات على صحافي أميركي حاول أن يطلب منه من جديد تأكيد قبوله غير المشروط بالقرارين 242 و 338، أجابه عرفات: "بالتأكيد قبلت.. كفى الآن. ماذا تريدون أكثر؟ هل تريدون منا ستربتيز"؟

ويهمني هنا أن أشير باعتزاز وتقدير رفيع إلى حدث فلسطيني تاريخي سبق ذلك الحدث التاريخي المتمثل بإعلان الإستقلال. ففي عام 1987 قامت الإنتفاضة الفلسطينية الأولى التي كان سلاحها الحجارة. وهي الإنتفاضة التي كان لحركة فتح

دور أساسي في الإعداد لها. وشاركت فيها كل التنظيمات الفلسطينية. لكن الأهم في هذه الإنتفاضة هو أنها تحولت إلى حركة شعب بكامله. ولا أنسى كيف كنا نشاهد على قنوات التلفزة الشبان والفتيان الذين كانوا يطاردون بشجاعة نادرة قوات الإحتلال بحجارتهم، والتي كان يرد عليها الجنود الإسرائيليون إما بالغاز المسيل للدموع وإما بالرصاص المطاطي. وكانوا يستخدمون في حالات معينة الرصاص الحي الذي أدى إلى استشهاد عدد من أولئك الشبان الشجعان. ومن المعروف أن تلك الإنتفاضة قد عمقت ووسعت دائرة التعاطف والإلتفاف في شكل غير مسبوق حول القضية الفلسطينية على الصعيد العالمي، وأكسبت القضية موقعاً قال عنه الكثيرون بحق أنه شبيه بقضية شعب جنوب أفريقيا. فضلاً عن أن تلك الإنتفاضة قد هيأت الشروط لتنامي وتصاعد حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني في الداخل الإسرائيلي تمثل أساساً بحركة السلام الآن وبالقوى اليسارية الإسرائيلية.

توالت الأحداث في البحث عن حل عادل للنزاع العربي – الإسرائيلي. وعقد مؤتمر مدريد في عام 1991 لذلك الغرض بالتحديد بمشاركة الدول العربية وبمشاركة وفد فلسطيني من خلال الوفد الأردني. وقد وافق "أبو عمار" على ذلك النوع من المشاركة الفلسطينية بعد رفض إسرائيل حضور وفد فلسطيني مستقل، إدراكاً منه لأهمية ذلك المؤتمر ولأهمية الوجود الفلسطيني فيه ،ولو في شكل غير كامل وغير مستقل. لكن عرفات، في الوقت الذي كان الوفد الفلسطيني برئاسة القيادي حيدر عبد الشافي يحضر المؤتمر، فتح الطريق سراً إلى اجتماع مغلق مع إسرائيل في العاصمة النروجية أوسلو. وقد شارك في اجتماع أوسلو وفد فلسطيني برئاسة أحمد قريع (أبو علاء) ووفد إسرائيلي برئاسة وزير الخارجية آنذاك شمعون بيريز. ومعروفة تفاصيل ذلك الإجتماع التي سبقت حدوثه وترافقت معه. ومعروفة القرارات التي صدرت عنه. وكان هدف عرفات من الذهاب إلى ذلك الإجتماع عدم ربط

مصير شعبه الفلسطيني بقرار مؤتمر مدريد، الذي كانت الدول العربية هي المفاوض الرئيسي فيه مع إسرائيل بالنيابة عن الشعب الفلسطيني، رغم أهمية القرارات التي صدرت عن المؤتمر والتي نصت على "الأرض مقابل السلام". كان يريد عرفات من التفاوض المباشر مع المسؤولين الإسرائيليين ممارسة حقه في اختيار طريقه المستقل إلى فلسطين داخل وطنه. وقد أدت المفاوضات في أوسلو إلى دخول الثورة الفلسطينية بقيادة عرفات إلى أرض الوطن. لكن التنازلات التي قدمها الوفد المفاوض والتي تمثلت بالقرارات الصادرة عن ذلك اللقاء التي حملت اسم "اتفاق أوسلو"، كانت باهظة وغير مبررة وكانت أكثر مما كان ينتظره حتى وزير خارجية إسرائيل ذاته. كان أبو عمار في أوسلو متسرعاً في الدخول إلى فلسطين في ظل وهج الإنتفاضة لمتابعة دوره في قيادة الثورة من الداخل بأي ثمن. وكان ذلك الثمن باهظاً.

وبرغم أن جدلاً كبيراً قد دار حول اتفاق أوسلو، بين مؤيد له ومتحفظ عليه ورافض له إلى حدود تخوين المشاركين فيه، وبالنظر لوجود الكثير من الثغرات التي وردت في الإتفاق، فمن المؤكد أن هذا الإتفاق هو الذي هيأ الشروط الصعبة والمعقدة بكل المعاني لانتقال الثورة وقيادتها التاريخية من الشتات إلى الوطن. فعلى أرض فلسطين كان اللقاء الطبيعي بين الثورة وجماهير الشعب الفلسطيني. وكان من المتوقع أن يؤدي ذلك الإنتقال برغم شروطه الصعبة إلى غضب بعض الدول العربية، لا سيما سوريا التي رأت في اتفاق أوسلو تعطيلاً للدور الذي كانت تمارسه على الثورة الفلسطينية وعلى سياساتها في الفترة السابقة. الأمر الذي جعل مهمة ياسر عرفات في قيادة الثورة شديدة الصعوبة، وسط ضغوط لا حصر لها تعددت مصادرها وصيغها وأدواتها. وكانت من أكثر تلك المصادر تأثيراً تلك التي أتت من سوريا ومن المنظمات الفلسطينية المعترضة على اتفاق أوسلو، التي احتضنتها دمشق ورعتها وشجعتها على الإعتراض وعلى تخوين عرفات وأنصاره. وبالطبع فقد كان

من أكثر مصادر الصعوبة هو الإحتلال الإسرائيلي والممارسات الإجرامية المتعددة الأشكال التي كانت تقوم بها السلطات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين. إذ أن القيادة الإسرائيلية التي شاركت في اجتماع أوسلو ولم تقدم للمفاوض الفلسطيني شيئاً حقيقياً مما كان مطلوباً، استقبلت دخول الثورة الفلسطينية إلى أرض فلسطين بقيادة ياسر عرفات بالمزيد من التنكر لحقوق الشعب الفلسطيني وبالمزيد من الممارسات العنصرية سياسياً وأمنياً ضد الفلسطينيين في الضفة الغربية وفي قطاع غزة.

وفي الواقع فقد كانت تلك المرحلة من تاريخ ياسر عرفات ومن تاريخ الثورة بقيادته الأكثر تعقيداً والأكثر صعوبة والأكثر اضطراباً. إذ أن الذهاب إلى الداخل الفلسطيني لم يحرر الثورة من الوصايات المتعددة عليها من الخارج العربي والإقليمي والدولي. وكان من أفدح أخطاء تلك المرحلة أن حركة فتح، وبقرار من ياسر عرفات بالذات، قد حولت الإنتفاضة من إنتفاضة بالحجر إلى انتفاضة أخرى بالسلاح ومن ضمنها العمليات الإنتحارية ضد المدنيين. إذ خضع عرفات لابتزاز حركة حماس وبعض التنظيمات الأخرى المرتبطة بالخارج العربي والإقليمي وبعض القيادات الفتحوية الملتبسة ارتباطاتها. وكان من نتائج ذلك الخطأ الفادح أن الشعب الفلسطيني غرق في الآلام وزادت التضحيات التي فرضت عليه بفعل الجرائم الإسرائيلية. وخسرت الإنتفاضة الكثير مما كانت قد تمتعت به في المرحلة الأولى منها. وازدادت المغامرات على أرض فلسطين باسم القضية. وكان من أفدحها تلك العمليات الإنتحارية التي ترافقت مع مواقف سياسية متشنجة ومزايدات شعبوية بالشعارات. وكان من نتائج تلك المغامرات أن إسرائيل زادت من عدوانيتها ومن همجية وعنصرية ممارساتها ضد الشعب الفلسطيني.

لكن أخطر ما أدى إليه تحول الإنتفاضة من الحجر إلى السلاح، ثم إلى العمليات الإنتحارية ضد المدنيين في الداخل الإسرائيلي، نشوء وقائع جديدة لم تكن

في صالح القضية الفلسطينية. بل كانت نقيضاً لها على الصعيد الفلسطيني بالذات وعلى الصعيد الإسرائيلي، وعلى الصعيدين العربي والعالمي. وهي وقائع أسمح لنفسي بتحديدها على النحو التالي: 1- فقدان حركة فتح بالتدريج دورها التاريخي كحركة علمانية جامعة لأقسام واسعة من الشعب الفلسطيني في الداخل وفي الشتات وجامعة لأقسام واسعة من الرأي العام العربي والعالمي، بصفتها القوة الأساسية في الثورة وفي قيادتها. وقد برزت منذ ذلك التاريخ بدايات انقسامات وصراعات داخل حركة فتح، حول مبدأ الكفاح المسلح وحول صيغة ذلك الكفاح وحول السياسات المضطربة التي كان يمارسها قائد الثورة ذاته ياسر عرفات. 2- تراجع حركة التضامن مع الثورة داخل إسرائيل التي كانت حركة السلام الآن تحتضنها، إضافة إلى قوى أخرى في مقدمتها اليسار الإسرائيلي، 3- وقوع فلسطينيي 1948 رهينة داخل إسرائيل لدى القوى العنصرية الإسرائيلية في الضفة وخارجها. إذ بدأ هؤلاء الفلسطينيون يتحولون بالتدريج إلى ما يشبه الطابور الخامس الفلسطيني داخل الدولة العبرية، وبدأوا يعانون المزيد من الإضطهاد والتمييز ضدهم، 4- تفاقم ظاهرة الإستيطان والمستوطنات في القدس وفي الضفة الغربية، 5- تفاقم التدخل العربي ثم الإيراني ثم الإسلامي السلفي في القضية الفلسطينية. الأمر الذي جعل القضية الفلسطينية، بالتدريج في نظر العديد من القوى التي وقفت إلى جانب الشعب الفلسطيني، تتراجع في وعيها لهذه القضية، 6- التراجع الذي بدأت تشهده القضية على الصعيد العالمي وسط الإنقسامات الفلسطينية والصراعات بين فصائل الثورة، وانكفاء دور الرئيس ياسر عرفات. وفصول تلك المرحلة التي سبقت وفاة عرفات، وآخرها الحصار اللئيم المجرم الذي وضعته السلطات الإسرائيلية على مقره في رام الله، هي فصول مأساوية ما تزال مفاعيلها قائمة بأسوأ الأشكال حتى يومنا هذا. ومن المؤكد أن التطورات والأحداث الدامية التي رافقت قيادة عرفات في رئاسته للسلطة

الفلسطينية قد ساهمت في تسريع توقف قلب ذلك القائد الشجاع، القائد الذي أطلق الثورة الفلسطينية في مرحلتها الجديدة الممتدة منذ عام 1965 حتى وفاته. إنه القائد الذي لن ينساه شعب فلسطين حتى وهو يتذكر مغامراته وأخطاءه الفادحة. ولن تنساه شعوب العالم كواحد من الزعماء التاريخيين في القرن العشرين.

رحل القائد ورحل معه حلمه الموعود المؤجل بتحقيق الحرية للشعب الفلسطيني وإقامة دولته على أرضه. وترك للأجيال الجديدة وسط صعوبات غير مسبوقة في داخل الشعب الفلسطيني وفي داخل الحركات التي تنطق باسم هذا الشعب، بما فيها حركة فتح الرائدة ذاتها التي كان هو مطلقها وبطلها، ووسط صعوبات آتية من الإحتلال الإسرائيلي القائم ومن سادة إسرائيل وقادتها العنصريين، ووسط صعوبات وانقسامات داخلية فلسطينية، ووسط تدخلات وتناقضات عربية وإقليمية ودولية.

لكن حلم ياسر عرفات سيظل أمانة في عنق الشعب الفلسطيني، وأمانة في عنق الشعوب العربية والمجتمع الدولي. وهو حلم لا بد من أن يتحقق ولو طال المدى.

ياسر عرفات في سيرته وفي مسيرته التاريخية هو واحد من أبطال الثورات الحديثة التي شهدها القرن العشرون.